رسائل الفردوس

« روايـــه »

معتز بن حميد

obeikandl.com

رسائل الفردوس

"روايـــه"

اسم الكاتب: معتز بن حميد
تدقيق لغوي: عياد العقـوري
تصميم الغلاف: محمـد علــي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
خطوط العنوان للفنان: عبدالرحمن موسى
رقم الإيداع: ٢٥٢٠١ / ٢٠١٧

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر
موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛
يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

رسائل الفردوس

معتز بن حميد

obeikandl.com

في صراعات هذه الحياة،

كثيراً ما ينقلب المفترس إلى فريسة،

وخلالها أيضا،

تؤخذ البهجة بسهولة فائقة من البعض،

لتعطى للبعض الآخر،

لذا فالحياة ليست عادلة...

المؤلف...

obeikandl.com

المصحة النفسية هي أكثر واقعية من أي مكان تعرفه الأرض.. ومهما كانت حالة سكانها؛ إلا أنهم يحيون حياة طبيعية، تختلف عن الحياة التي نألفها نحن، حياة خالية من شوائب الإنسانية؛ لأن فيها ينفصل المرء عن مدارك البشر، ويتعايش مع حاضره، دون سواه.. أما نحن فلا نحيا إلا بالماضي، وكل تصوراتنا عنه، كاذبة مزيفة.

كنت أجالس وحدتي وارتاد غرفة بالطابق العلوي، يطل أحد جدرانها على شرفة ضيقة تنتهي بدايتها بفسحة مزرعة لصيقة بالمنزل. لا أجد سوى الورق الذي أنهال عليه بوداعة لملئه بالكلمات التي تمر على خاطري بالمصادفة أو بالاجتهاد في تذكرها، أرنو إلى تصحّر الورقة الجرداء أمامي؛ فأحاول جلب ربيعها مخضرا بالجمل الفريدة في تاريخ مضى وعفت سطوره بأكاذيب الأشقياء.. أعاني ويلات كتابة مذكرات ذلك التاريخ، أحس نحوها بالشفقة، وأشعر بأن الإجحاف قد تملكها.. ولما كان لحياة الإنسانية من طريق موحد، فالكتابة لها تلزم استحضار كل الجوانب، دون الانجراف نحو العاطفة الخادعة. لقد أنهكت كل الأفكار التي تحوم حول ذهني، اصطادها.. أمسكها بفطنة غبية مني، وأطبعها في كتاب المذكرات الذي أرغب في تأليفه. أعيد قراءتها مرارا، واكتشف أنني قيد أساطير يرجوها الرجال عندما تمضي حياتهم. ولأنني أعرف جيدا أن التاريخ منهك بفراغ الناس، فلا بد من الإطلاع على كل الأحداث الماضية فيه، إذا رغب المرء في سرد إحدى قصصه.. أتمعن قول ول ديورانت: "تراكم المعرفة، قد شطّر التاريخ"[١].. فالأحداث التي كنت

---

[١] من مقدمة موسوعة "قصة الحضارة" للمؤلف ول ديورانت.

أتلقاها شطرت كتابة المذكرات التي أردتها إلى أضعاف عديدة؛ لهذا فإني استمر في خوض تلك التجربة على مضض. وكدت - لمرات عديدة - أتوقف وأمزق أوراقي المغطاة بالأحرف المركبة - بلغة نتكلمها ولا نفهمها – التي تشكّل كلمات تنساب عبر الأنامل ولا تعرف طريقا غير فسحة بياض الورق؛ كدت أمزقها؛ لكني أتذكر قول تاي تانج: "لو كنت لأنتظر الكمال، لما فرغت من كتابي إلى الأبد"(٢).. فاعزي نفسي بالمغامرة، وأكتب.

لم أجد غير صديقي "الكهل" الذي تعرّفت عليه داخل المصحة النفسية لأثق فيه، وأمنحه شرف السرد لجزء من التاريخ المخفي عن تلك الحرب التي عايشتها وأنا صغير، وأعطي مذكراتي نصيبا أوفر في تلاوتها على لسانه.

وأجعله دون غيره يحكي لي عن كل التفاصيل التي يخبئها الرجال عن التاريخ الذي صبغ معظمه بلون الخوف المنحرف.

عدلت جلستي على طاولتي المطلة نحو الشرفة، بعد أن مزقت الجزء الأوفر من كتابتي السابقة، وشرعت أتأمل الورقة الفارغة أمام ناظري.. فكرت للحظات، استطرد الخيال من كلمات ذلك الكهل، وكتم أفكاري.. تركت يدي اليسرى تتحسس الورقة والأخرى تتحرك نحو مطلعها وتكتب كل كلماته:

---

(٢) قول الحكيم الصيني "تاي تانج" جاء في مستهل كتابه: "تاريخ الكتابة الصينية".

(1)

أمضينا في فترة الحرب، وقتاً طويلاً في الجبهة، جَرحْنا وقَتلْنا أُناساً كثيرين بأيدينا، كنا نصطاد البشر بشراسة، لم تأخذنا الشفقة بأحد.. آه... للحرب سُبل كثيرة، رغم تعددها واختلافها، فجميعها يؤدي إلى شيء واحد.. الموت، ولا شيء سواه. الموت يتمثل في كل خطوة منها، حتى النصر إذا امتلكناه فإنه لا يمر؛ إلا عبر الموت.

حين كنت طفلاً، أمسكت بفرخ يمام يملؤه اصفرار الزغب، قد وقع من عشه، كان غضاً جميلاً.. أخذته وعدت به فرِحا إلى البيت، لكن أمي وبختني وقالت لي: "أعده حيث وجدته، لابد أن أمه تبحث عنه بولع، أطلق سراحه فهو كائن مثلنا، سيكبر، تماماً كما ستكبر أنت.. إن له حياة جديدة تنتظره مع فصيلته، لا تفسد عليه أمر الطبيعة يا بني". أرجعته في مكانه، وخمنت كثيرا، وتمنيت أن أراه عندما يكبر.

لقد صادف أثناء الحرب أن مررنا بأعشاش كثيرة، فيها من اليمام فراخاً وصغاراً، وكباراً، لم نتجاسر على إيذائها، نتردد حين نراها، كنا نأويها، نتعمّد عدم اصطيادها، أما البشر فلم يصادفونا؛ بل كنا نبحث عنهم، نلاحقهم، ونقتلهم دون هوادة، أصبحنا قساة، همنا الوحيد أن نرى العدو أمامنا، لقد أهلكوا الكثيرين، وأبكوا أرامل عدة، ويتموا أطفالاً لا حصر لهم، وكي نواسي قلوبنا؛ كان علينا أن نقتلهم.

حين نرى خيالاً ببدلة خضراء أو صحراوية اللون، كنا نثور ونتفاعل بحماس مطلق، نتحفز بفخر ونقاتل بدون توقف، ما كان يعزّينا فقط هو اعتقادنا بالصواب، وهذا ما يحدث دائماً، جميعنا يتشفى بذاك الانتقام، وبالطبع ضمائرنا لا تؤلمنا.

أترى هذه التجاعيد التي صحّرت وجهي؟ البعض يعتقد أنها ملامح السنين، والبعض الآخر يظنها نتاج المرض.. إنها فقط من المعاناة والتفكر بالناس الذين سلبت أرواحهم.

اليمام - الذي لا قيمة له عندنا - يجب أن يعيش، فما بالك البشر! والغريب أنه حين يساورنا الجوع لا نأكل اليمام، لكن إذ عطشنا نرتوي بدماء العدو.

هل تعرف؟.. عادة ما تطفو مشاعرنا، وعادة ما تتبخر، عادة ما تتغيب ضمائرنا؛ بل إنها تغيبت حتى اختفت، تُلزمنا الحاجة أن نبقى بدونها، من يستطع العيش بدونها؟ وإذا استطاع فكيف؟ كنا نجزم بأن هناك الكثيرين ممن يعيشون بدون ضمير، وأدركنا بذكائنا أنهم من الجانب الآخر.. بعد فترة أدركنا بغبائنا أنهم أيضاً من جانبنا نحن.

صمت "الجندي الكهل" وأدار عينيه يسارا ناحية النافذة، ثم أدار رأسه بالكامل بنفس الاتجاه، كنت أراقبه، أنظر إلى عينيه الغائرتين في سوادهما بألم طفولي، أترقب حركة شفتيه المشقوقتين بحواف كثيرة بارزة، كانتا مثقلتين أحيانا بزفير قوي، افترس وجع نامٍ بذاكرته.. كنت أفعل ثلاثتهما وأنا

أعي ما يقوله، صمت واستدار الكلية بجسده الرخو المتهالك، وقف وقد رأيت من وقفته أنه نسى أنني بجانبه، ولأنني كنت أمعن النظر وأستمع برغبة شديدة؛ فقد تركته يواصل كلامه، لم أجب عن أسئلته تلك، التي كان يوجهها إليّ بطريقة التوبيخ، تماماً كما يفعل خطباء المساجد حين يلقون علينا خطبة الجمعة، نستمع لأسلتهم ولا نتجرأ عن الرد.

صمت وقد صمت كل شيء حولنا، كنت أنا فقط معه، كل ما يجمعني به في الغرفة من أشياء جامدة صمتت، بدأت نسمات خفيفة تعانق الشق الصغير الذي يفصل أبواب النافذة المفتوحة بعناية، دخلت دون استئذان ومزقت السكون الذي يحيطنا، أعادت إليه حياته الماضية، كان واقفاً بالقرب من النافذة، مدّ بصره براحة تامة، وبدأ يواصل حديثه شارداً بعينيه اللتين أصبحتا كنجمتين ضالتين في سماء مزرقّة السواد:

- أحياناً أفكر لماذا نصنع الحرب، ولماذا نصنع السعادة؟! كلاهما تفتعله الإنسانية، ثنائي مهم لها، ورغم التضاد الذي يتباين بينهما؛ إلا أن البشر لن يتخلوا عن الجانب المظلم من هذا الثنائي، ولا الجانب المضيء أيضاً.. كيف يتسنى للإنسانية أن تنقذ اليمام ولا تعيق قتل الناس؟

كدت أن أقاطعه، أحسست بتزايد الألم الذي اعتراه في هذه اللحظات، لم أجسر على ذلك، كنت أحاكيه بأفكاري فقط، وأترقب لمعان عينهُ اليمنى المنعكس على زجاج النافذة، لا ينظر إلى شيء سوى المنظر البعيد، هممت

بالنطق ثم تمهلت لجعله يستمر في السرد، خفت أن يعتقد بأني لست موجوداً معه فيتوقف عن التذكّر، لكنه عاد يتحدث بعد برهة:

- ما نعمة النسيان إذا كان لايأخذ منا إلا ما يسر أنفسنا؟ وما قيمته إذ يعجز عن نزع ما يفتك بأرواحنا؟ إن هموم الحرب بعد النصر تقاوم تحقيق السعادة، ولا أظن أن الله سيمنحنا الاثنين معا، النصر في الحرب والفوز بالسعادة.

لم أظفر أنا خلال السنين الطوال التي مضت على اندلاع تلك الحرب بالسعادة، لم أعرف هل أملك الآن ضميراً، أم أن الأفكار التي تأتيني في وحدتي الموحشة هي مرض نفسي، كما يقولون.

تلك كانت الكلمة الوحيدة التي أيقظته، وأيقظتني، استدار "الكهل" نحوي بطريقة رتيبة لا تخلو من النمط العسكري الذي عاشه سنوات عدة من حياته، رمقني بنظرة غريبة، وكأنه تفاجأ بوجودي، وأنه لم يراني منذ بضع ثوانٍ مضت، هذا ما خيّل إليّ من خلال ثبات عينيه نحوي، كانت نظرته حادة.

- عن ماذا تريدني أن أحكي لك؟ هذا ما لدي، وهو المهم بالنسبة إليّ، أما غير ذلك فأنا أعتبر أن جميعها أشياء تافهة.

قال هذه الجملة بسهولة، وما يزال محدقاً بي.. ذُهلت من كلامه البسيط النقي، عرفت للتو لماذا زُجّ به إلى سجون الأمراض النفسية، فتلك العنابر القاتمة الموحشة، لا تشبه المستشفيات، إنها بالكاد سجون، وربما تكون عنابر الأخيرة أكثر حيوية وصفاء. من خلال تلك الكلمات المتتالية السريعة

obeikandl.com

عرفت أنه غير مريض، أنه أكثر البشر امتلاكاً للعقل بيننا، فالمرضى يكبحون جماحهم بطريقة غير شعورية ويلقون بوعي أو بلاوعي الأحداث المؤلمة أو المفزعة أو المستقبحة في طي النسيان، من كلماته أيضا أدركت للحظة أن الحياة ليست عادلة، هل يكون لهذا الرجل الذي عمل سنوات عديدة تحت وطأة السلاح والنار ليحمي تراب الوطن، جزاء مخزي كالذي أراه الآن.

"كان هذا الكهل الشجاع، جندياً التحق بالجيش منذ أن بلغ تسعة عشر ربيعاً، دخل قسم صيانة الآلات الثقيلة، عيّن رئيساً لهذا القسم وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، ومع ذلك لم يترق مرتبة عسكرية، ثم غادر الجيش إثر إصابة خطيرة كادت أن تفقده رجله اليمنى، حين سقطت عليها سبطانة لدبابة ضخمة. عندما اندلعت الحرب كان أول المتطوعين، وقد تجاوز عمره الأربعين آنذاك، شهد له الجميع بدماثة خلقه، وجراءته وبسالته؛ لهذا كُلّف بمهام معاون آمر السرية الاستكشافية في مقدمة الجيش، رغم تقاعده القديم ورتبته التي لا تتعد الجندي".

"أدخلوه هنا بعد انتهاء الحرب بفترة طويلة، حاول أن يكتب مذكرات عن الأيام التي عاشها في الحرب وهو معاون للآمر، شرع بكتابتها حقاً، فانتبه له صديقه العقيد واطلع عليها، ولأنه كتبها بكل تفاصيلها الدنيئة، وبأسرارها التي لا يعلمها إلا هو وبعض القادة؛ فقد أوقف واستجوب من قبل أفراد الأمن.. حين خروجه من حجز بتهمة سياسية استغرقت أشهر قليلة، أصرّ على كتابتها من جديد، فعلم رجال الأمن آنذاك أن العلاج السليم لحل مشكلته

ليس قطع أصابعه أو إيذاءه جسديّا؛ بل قطع أفكاره وبترها من جذورها، واتهم أخيراً بالجنون، ودخل ببساطة إلى المصحة النفسية".

أطلقت العنان بلحظات سريعة في التفكر بحاله، وبالحجة الوضيعة التي أوصلته إلى هنا، حوّلت ناظري عنه وأرجعت عيناي ببطء من جديد صوب نظرته الحادة القاسية التي لا تزال ثابتة، ومن دون أن أفكر قلت:

-. أنت لم تخبرني بما تريد، أنا أعرف ذلك.. أنت لم تقل غير الذي لا ترغب في قوله أو تذكّره، تحاول إخراجه من داخلك؛ لتنساه، صحيح.

سألته؛ ليؤكد لي صحة ما أخمن به، أنا أعرف أنه لا يشكو من علة نفسية، لكنني أعلم بالضيق والحسرة التي تملكته، لم يرد، وأعرف أن مثل تلك الأسئلة لا يحبذ المرء أن يتلقاها، صمت من جديد فور سماعه كلامي! وتركني أنا أتحدث:

- أنا لا أصدقهم.. لست مثلهم، أعرفك جيداً، أنني جئت هنا لأساعدك، صدقني.. يمكنني أن أكتب ما أردت أنت كتابته، يجب أن تساعدني أنت في ذلك، وربما سيكون...

قاطعني بحدة غير مسبوقة منذ أن التقيته وقال:

- يجب عليّ أن أذهب، اسمح لي.

خرج ببطء، وأغلق الباب خلفه، ووجدت نفسي بمفردي في القاعة الصغيرة التي خصصت لجلسات الاختصاصيين الاجتماعيين.

(2)

"عزيزي.. أرسل إليك دون غيرك؛ لأنك الوحيد الذي يملك نفس السأم، ونفس اليأس من ذيوع الفساد الفكري لدينا. الآن اكتشفت أننا نختلف عنهم جميعا، لا أحد يشبهنا، لا أحد له المقدرة على النضوج غيرنا.. الكل مصاب بذلك الفساد.. لقد مرت سنين عجاف، وأخرى رائعة، مرت وأخذت وقتها من الزمن كغيرها، دون أن يسعفنا الوقت كي ننجز شيئا فيها، ولن ننجز!.

لم يخب الظن فيك، فأنت مثلي، أرى ذلك في عينيك كلما حدثتني عن عالمنا المزيف. لماذا نحن دون غيرنا؟ لماذا لا نملك أناسا حقيقيين؟.. إني أخبرك بذلك؛ لأنك تعرف فعلا، أنه لا يوجد لدينا حقيقيون، في كل شيء! لا يملكون أيما هدف، ولا فكر، ولا ذائقة، ولا حب، ولا جنون، ولا عاطفة، ولا خير، حتى الشر يمتلكونه بشكل سيء! هم لا شيء، ونحن (أنا أنت) لن نتمكن من مجاراتهم، المعادلة غير منصفة، نعم.. إما أن نعيش نحن خارجهم، أو هم يعيشون خارجنا.. بالتأكيد نحن سنتركهم فهم لن يتقبلوننا، ولن يجعلون القلة تهزمهم.. هكذا سنت قوانين الحياة، فالقانون الشائع، بأن (القوي يأكل الضعيف) ليس دائما يُصيب، هناك قوة جبارة لن تتغلب على الضعفاء، أتعرف لماذا؟.. لأن القوة الأكبر منهم، حتى وإن كانت عظمى فهي لا شيء بالنسبة إليهم! سأعطيك دليلا قاطعا على كلامي هذا.. أين قوة الله (تجلّى في علاه) وعظمته من كل شيء؟ مع ذلك فالكثير من البشر لا يتقبلونها، هناك فرق في الاندماج مع تلك القوة والخوف منها، معظمهم يخافونها، بشتى

الطرق.. جميع البشر يطلب عفو الله بالشكل الذي خُلق عليه، لكن قلة منهم من يطلبون الاندماج مع تلك القوة وفهمها حق الفهم.

عزيزي يدفعني اليأس اليوم لأكتب إليك، كل حرف أكتبه صادر عن أنين عميق، لا أجرؤ على كتمانه.. لا تنزعج من كلامي عنهم، فإنك إذ انزعجت الآن، فغدا لن تسامح نفسك لأنك لم تفهمني عندما تكتشف الفساد الذي يعيشون معه (إذ لم تكن قد اكتشفته حقا!)، حتى أنني بت لا أعرف من الذي تشابه مع الآخر، الفساد نفسه بهم، أم هم به؟!.

عزيزي.. دعك مني ومن ثرثرتي، أخبرني أنت عنك.. قد تساورك الرغبة في أن تكتب إليّ، أرجوك أكتب إليّ.. أتمنى لك الفرح والغبطة، وليحرسك الله.. تقبل تحاياي".

صبيحة اليوم الثاني أتيت منهكا للمصحة، مرت ليلة البارحة بقسوة على منامي، كنت أتذكر كلامه وبساطته، لقد خيّل إلي أنه آخر الرجال نبلا في هذا الوطن. أخذت الورقة التي أعطاها إليّ فور وصولي ومقابلته، كانت رسالة.. أنهيت قراءتها، ونظرت إليه بابتسامتي المصطنعة؛ لأن الألم كان يحملني تجاهه، وقلت:

- لمن هذه الرسالة؟

- هل ستحملها إليه؟

قال ذلك، وصمت.

openkanal.com

- بالطبع أنا سألبي طلباتك، أي شيء تريده ستجده.. لمن أعطيها؟.

تخلى عن سؤالي، وأمعن النظر صوب عينيَّ، بنظرته الحادة تلك، نظرت نحوها، ضاقت حدقتاي وحوّلتهما إلى شفتيه اللتين بدأتا تتحركان وتخرجان صوته الشجي المسن:

- لأنني أب.. مثل الكثيرين؛ فأنا أعرف الآن جيدا كيف يكون الفراق.. حين تنتاب أحدهم السعادة والعذاب وهو ينتزع من لقمته، من عرقه، ومن جسده، يقتسم من جهده؛ ليعطيها إلى ابنه، يهب له كل رعايته، يمنحه حتى نفسه، كل شيء يفعله من أجل سلامته.. وعندما تأتي الحرب، برصاصة واحدة تخطف منه هذا العذاب، وهذه السعادة.

  هناك الكثيرون ممن فقدوا أبناءهم في تلك الحرب.. أسمعت عن آباء تيتموا؟! هذا ما حصل لهم، فقدوا أبناءهم بالجملة، منهم من فقد كل ما يملك من أبناء.. فراقي ليس كفراقهم، أنا لا أراه، صحيحا.. لكنني آمل ذلك على الأقل.

عرفت لمن هذه الرسالة، وفضلت ألا أتأكد؛ لأن هناك من الناس من يفضّل أن تكون عند من يحدثونهم، نوع من سرعة الفهم، ولا يحبذون إكثار الأسئلة، وهذا الكهل بالطبع واحد من هؤلاء. قلت له:

- حسنا.. أين أجده؟

opeikanai.com

- لا أعلم بالضبط، لقد تركته منذ زمن بعيد، أو ربما هو تركني.. لا أدري من ترك الآخر، المهم أنني أريد الاطمئنان عليه، وشغفي بأن يكتب إليّ فقط..

لم أعرف منه إلا المكان الذي تربى فيه ابنه الشاب، وعدته بأن أقابله وأن أسلمه الرسالة، وأن أصرّ عليه بالكتابة له. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، كنا قد خرجنا للشرفة المطلة من صالة الاختصاصيين نفسها التي قابلته بها أول مرة، جلست على حافتها القصيرة، وأسندت جسدي بيديَّ الاثنتين خلف ظهري، استدرت برأسي للوراء وتطلعت إلى الأفق القصير الممتد بباحة المصحة، عدتُ به للأمام وسألته عن طفولته.

ما يمر به هذا الكهل ربما لا يشابه حالة "الكبت" الناتجة من تضاد الأحداث الشعورية وجعلها لاشعورية من قبل مقاومة المريض وصراعه النفسي، وهذا ما يجعل "الأنا" عند المريض يتقهقر بعد صدمات يتلقاها من ذلك الصراع تجاه الأحداث ويمنعها بأن تكون شعورية، ويبدأ "الأنا" أيضا بأن يحمي نفسه من أي خطر يهاجم تلك الأحداث المكبوتة.. وطبعا لدى المريض من هذا النوع، تطورات وعواقب قد تتحول خلال هذا الصراع النفسي إلى أعراض جسمانية تصل لحد الشلل الهستيري[٣] وغيره.

---

[٣] الشلل الهستيري: هو أحد الأعراض الجسدية الناتجة عن الإصابة بـ"الهستريا". والهستريا مرض تسببه الصراعات النفسية.

هذه الحالة بعيدة تماما عن هذا الرجل؛ لذا فضّلت عدم استخدام ما يفعله الأطباء في بذل جهود مضادة للأحداث اللاشعورية لجعلها شعورية.. برغم عدم ممارستي لمهنة الطب؛ إلا إنني أيقنت أن حالته مختلفة.

عندما سألته عن طفولته، أردت أن أرجعه إلى موضوع ابنه بطريقة ملتوية، فقد عرفت الآن ما يهمه.. فقط التواصل معه. لقد استغنى عن كل حسرته، وعن كل ما أراده من إفضاء جزء هام من حياته عبر كتابته للمذكرات، استغنى عنهما فقط مقابل سعادته بأبنه.

أجابني:

- عن طفولتي؟ أم عن طفولة ابني؟.. يجدر بي أن أحدثك عنه، فطفولتي لا أتذكرها بقدر أن أتذكر طفولته التي لطالما أحببتها.

- كيفما تشاء، أنت وهو واحد.. لا فرق عندي بسماع أي شيء عنكما.

تنهد بزفرة طويلة امتدت لأربع ثوانٍ، اتبعها بشهيق خاطف قال بعدها وذهنه مشغول باستذكار بعيد:

- أذكره بسنوات طويلة قبل دخول الحرب، عندما كان يلاحقني إلى باب منزلنا رغبة منه في الذهاب معي للمعسكر، أذكر ذات يوم أنه

obeikandi.com

ألح عليّ وبدأ صراخه المعهود، لدرجة أنني لم أعرف الطريقة التي أخرج بها من غير أن يراني، كان يقف خلفي عند الباب، نزلت على ركبتي ببدلتي العسكرية وحقيبتي الجلدية المليئة بأدوات الصيانة بيدي اليسرى، أمسكت بالأخرى كتفه الأيسر الصغير، وقلت له: "أعدك يا بني أنني سأجعلك تلتحق بالجيش عندما تكبر، ستصبح شجاعا وتحمي أرضك كما يفعل أبوك.. لكن ليس الآن، أنت صغير على ذلك".. ورغم أنه شقّ طريقا مغايرا عندما كبر؛ ألا أنه تطوع في الحرب قبل بلوغه.. اللعنة على الحرب، كل شيء فيها يسلبنا الابتسامات، كم أكره الجانب القاتم من الإنسانية الذي يدّعي بلوغ السعادة وينشئ حربا كل يوم.

جلس على الكرسي البلاستيكي الأبيض المتسخ الملقى بالشرفة، وارتخى عليه، تحررتُ أنا من حالة القلق التي جذبتني نحوه، تمعنت وجهه، كان خشنا، تخترق خطوط التجاعيد العريضة معظمه، وتتداخل بحركة آلية لتضيق كلما تنفس بقوة. تحسس ساقه اليمنى، وأدخل يده تحت ركبته، انقبض وجهه بأكمله حين رفعها لفوق قليلا، ثم ارجعها للأرض، واسترخت رجله، وكامل جسده، وملامح وجهه.. شقّت شفتيه ابتسامة حزينة وتابع قائلا:

- ذات يوم قَبضنا على ثلاثة شبان يافعين، كنا قد وضعناهم مكتوفي الأيدي في مؤخرة عربة ناقلة للجنود متوسطة الحجم، بالكاد كانوا يتنفسون بعد إغلاق كل نوافذها وأبوابها، كان سواد الفجر يقتطع ببياض خيوطه،

o p e i k a n d i . c o m

ولأننا حرصنا على سلامتهم؛ كان أكبرنا سنا وأكثرنا حكمة يشدد على حراستهم، فبعض التصرفات الطائشة كانت تُصيب أحيانا مقدمة سريّتنا بالارباك. نمت ونام أغلب الجنود؛ إلا المسؤولين عن الحراسة.

أفقت في الصباح على صوت إطلاق رصاص متتالٍ وسريع، ولأني قد تكسّلت في الذهاب إلى مصدر الصوت، أو ربما لأن رجلي لطالما أعاقتني عن الإسراع؛ وجدت الكثيرين قبلي قد اجتمعوا، وحين اقتربت كان ثمة شجار وعراك بين الآمر وبعض المتطوعين.. أنت تعرف أن أغلب المتطوعين الذين انضموا لسريّتنا، كان من الصعب ترويضهم. لقد قتل بعض منهم الأسرى الثلاثة!. تألمت لموتهم، ابتعدت عن مصدر الشجار الذي استمر طويلا وأنا أحمل جثثهم مع بعض الجنود لدفنهم. انعزل عن مخيلتي الكلام القاسي الذي كان يدور بينهم، وبدأ يتلاشى.. ما أذكره فقط أن أحد المشاركين في قتلهم، كان يلقي أقذع الشتائم التي سمعتها في حياتي دون أن يوجهها لأحد، وكان يتلفظ بجمل غير مفهومة، احتفظت من بينها بكلمات تدور حول مقتل أخيه الوحيد عندما وقع أسيرا في أيدي العدو.

تذكرت وأنا أهيل التراب على وجه أحد الشبان قبل جسده، حين وضعته في حفرة قصيرة، تذكرت الطريقة التي سيّتلقى بها والديه خبر موته، سيقصفهما بالتأكيد حزن شديد. لقد ضعفت قواي، وتهاوت همتي للزحف نحو العدو.. الألم بدأ يصارعني، كره الحرب وما يؤول عنها استقر داخلي، تمنيت لو أنني لم أصاحب الجيش. كيف لي أن أترك أرضي دون حماية؟ من سيقف مكاني لو لم أكن موجودا؟ ترددت هذه الهواجس التي كان صداها

يقوي عزيمتنا ويعطينا حججا للقتل ويحفّزنا توقا لمشاهدة الدماء. أليس الله من يحمي أرضنا؟! لماذا لا نترك الحرب ونولّي أمرها لجنوده - غير المرئيين - ليحرسوننا؟ بعضهم كان يجيبني بأن: "الله يأمرنا بالعمل والاجتهاد، الحرب أيضا عمل من واجبات الإنسانية"!.

لقد رأيت في وجه هذا الشاب ابني الذي لم أره منذ أشهر.. ماذا سأفعل لو كان هو بدلا منه في هذه الحفرة؟ ربما سأنتقم كثيرا، ولا أحزن لأنني سأفكر بنفس ما يكن يحوط بعقل ذلك الشاب الذي فقد أخاه، وسرعان ما اختفت هذه الأفكار بعد أن غطى التراب كامل جثته.

توقّف "الكهل" عن الحديث برهة، تنهد من جديد، وبصوت خافت قال لي:

- الحرية تملك قسوة لا حدود لها، أنها تحمّلنا مسؤولية مثقلة.. عندما نتوق لنيلها تهبنا جزءا منها، وتأخذ كل شيء منا.

openkanal.com

(3)

أدارت الحافلة محركها وانطلقت صوب مدينتي، كانت تبتعد ببطء عن محطة البلدة الصغيرة التي كان يقطنها "الكهل" مع أسرته، المسافة بين البلدة والمدينة طويلة، لقد ذهبت لأراه وأعطيه الرسالة.

الشمس تأخذ منحى اختفائها، تلامس خيوطُها المضيئة الخفيفة فسحةَ الخضارِ الذي يطل من نافذة الحافلة الكبيرة. خلال النافذة شاهدت بعض الفراشات الراقصة وهي تنعم بذلك السحر الطبيعي، شاهدتها بوضوح غريب وتحولت النافذة في ناظري إلى لوحة فنية، نقية ومصورة بدقة، وكأنها رسمت بريشة فنان ماهر. تذكرت عندما أحنيت وجهي وألصقت خدي على الزجاج، كيف كانت المرأة العجوز التي قابلتها عند منزل الكهل في ضواحي البلدة، كيف كانت تخبرني عن ذكرياته وحياته التي تحولت بعد رجوعه من الحرب إلى شكل أسوأ مما كانت عليه سابقا، لقد فقد مهيّته من الجيش، فموازين تلك المؤسسة تدهورت بانتهاء الحرب، لكنه - رغم ذلك - امتهن الزراعة مع أخيه الصغير، الذي أخذه الموت منه قبل حتى أن يتزوج. لقد أخبرتني عن فترة اعتقاله.. زوجته ظلّت بحبها له تصطبر عن غيابه القصير الذي أحدثه السجن، وبحبها أيضا ظلّت تقاوم غيابه الطويل الذي أحدثته المصحة، لكنها لم تنجح في الانتظار، فالموت انتزع روحها قبل أن تصطبر.

obeikandl.com

أخبرتني المرأة العجوز بقصة كان يرددها "الكهل" على مسمع زوجته التي بدورها نقلتها لها، عندما سألتها إذا ما كانت تعلم بأحداث مزعجة تصيب حالته النفسية وتجعلها غير مستقرة بعد الحرب، فقالت لي:

- كنت أقضي مع زوجته معظم الوقت بين الظهيرة والغروب؛ لأنه كان يعمل مع زوجي طوال النهار في المزرعة. أخبرتني ذات يوم بقصة مريبة كانت تفزعه، وكثيرا ما كانت توقظه من نومه بهلع.. كان يتخيّل تلك الصور البشعة التي رأها ذات يوم في حادثة أو حادثتين ربما، وهم بين أشد الصراعات فورانا في الحرب، ورغم عدد الموتى الذي رأه هناك وعدد الأرواح التي اقتصها من العدو؛ إلا أن لهذين الحادثتين شأن آخر. لقد حدثتني زوجته بلسانه مسترسلة:

"ذات ليلة مقمرة هادئة في الجبهة، وصلتنا معلومات من أحد الأفراد التابع لقواتنا بالقرية الصغيرة التي تقطع طريق توجهنا نحو العدو. فالكثير هناك يؤمنون بما نؤمن به نحن، يعرفون أن ضراوة الحرب مهما استمرت، فهي لن تكون أقسى من ظلم حكم ذلك العدو، ولو بسلام مدى الحياة، لذلك فأولئك يتعاونون معنا خلسة وبشكل يكاد لا يذكر؛ بسبب الخوف الذي يعتريهم من أفعال خسيسة لا نعلم بها، ينجزها العدو بهم، تصلنا أخبارها بطرق كثيرة.. كانت المعلومات رغم بساطتها تعني لنا الكثير، خصوصا نحن العسكريين؛ لأننا كنا نعتمد على التقدم بحذر، ولم تأخذنا الحماسة المطلقة كما كان يفعل المتطوعون. أذكر أن سيدي الآمر أخذني إلى الخيمة الصغيرة المليئة بالأسلحة والذخائر، وقال لي بصوت خفيض: "جاءتني توّا معلومات

مهمة جدا، الكثير من سكان القرية يرغبون في التمرّد على العدو، لكن الحيلة تغلبهم، لا يملكون سلاحا، ثم أنهم محاصرون بعصابة تتجاوز الألف من أفراد العدو ونصفهم يحملون سلاحا ثقيلا يؤمِّنون مقدمة فرقتهم، وهم يستبيحون كل شيء في قريتهم، يأكلون أكلهم ويستخدمون أسرّتهم وحاجاتهم، هذا فقط في الجزء الأوسط والأطراف البعيدة عنا من القرية، أما الأطراف القريبة ناحيتنا فهي خاوية على عروشها؛ إلا من بشر قليل، وكلهم فتية.. نساؤهم وأطفالهم في ملجأ بعيد عن القرية ومحاذٍ للبحر، وبمجرد أن ندخل أطراف القرية نستقر في الجزء الأمامي، بعد أن يؤمنونه لنا أهله وبعض رجالنا القلة الذين يقطنون هناك، وما أن يمر يوما أو بعض يوم حتى نهاجم العدو المتمركز في الوسط خلسة. إذا دخلت فرقتنا الصغيرة بهذا الشكل الذي وصفته لك، لن ينتبه لها العدو فالمسافة التي تفصلنا عنه في أطراف الأمامية ليس قريبة". بعد حديثه وشرحه لي بالتفصيل الدقيق لخطة الهجوم، اتفقت معه على تنفيذها بعد عشرين ساعة لاحقة، حيث أننا قررنا بدء السير نحو القرية لحظة الغروب من اليوم الثاني، حتى نصل فجر نفس اليوم، كذلك اختيار وقت الليل للسير قُدُما سيمكننا بشكل أفضل من التستر من مراقبة العدو لحركتنا."

"كنا قد انفصلنا عن فرقة يرأسها قائد متطوع لا يتبع للجيش، تميزت فرقته بجسارة منقطعة النظير، كانوا قد ساروا للأمام بعد أن استبقونا لمهاجمة العدو من ناحية معاكسة لاتجاه البحر، حيث إن العدو كان يجهل تلك المناطق، وتقدمه باتجاهنا كان ساحليا، وعادة ما يكون في المنتصف. اتفقنا منذ شهر ويزيد أن يدخلوا من العمق ونتقدم نحن عندما يقتربون

ويعطوننا الإشارة. لكن دهاء الحرب - عادة - ما يخون كل التوقعات الموضوعة، فقد سمعنا من رسول جاء من بينهم أن اشتباكا عنيفا حدث بين تلك الفرقة والعدو، ولأن الفرقة كانت مكوّنة معظمها من عناصر مشاة بعربات صغيرة، فكفة الميزان سترتفع ناحيتها إذا تصادموا عن بعد مع العدو. لم يحمل لنا الرسول إلا أخبارا ناقصة وبعدما أن تقصى بعض رجالنا على آثارهم لم يعرفوا شيئا عنهم، اختفوا واختفت أخبارهم بالنسبة إلينا للأبد، تماما كما تختفي أمواج البحر الآتية من العمق عندما تصطدم بالشاطئ.

ما إن انقضى الغروب في اليوم الثاني، حتى كنا قد أعددنا العتاد للسير، كانت الريح ذلك اليوم قوية جدا، لدرجة الكفر، وغبارها يلقي بفتات الأحجار في وجوهنا وأعيننا وسائر أجسادنا، لقد أعاقت حركتنا كثيرا، وجعلت النهار يداهمنا قبل أن نداهم نحن أطراف القرية. وعند منطقة لا تبعد كثيرا عن القرية وجدنا عربات كثيرة متفرقة محروقة، وبعضها مدمرة بالكامل، كانت عربات فرقتنا الضائعة.. ما شاهدناه كان ينبئ بعدم اطمئنان ناحيتهم.. لم نجد جثثا قرب العربات فأمِلنا أن يكونوا جميعهم قد أسروا، لكن صاعقة كبرى اجتاحت أذهاننا عندما تخطينا مسافة ليست بقليلة عن مكان العربات، وجدنا حفرة كبيرة، كانت تلك الحفرة الطبيعة بمثابة الوادي غير العميق، كانت ملأى بجثث فرقتنا، لم أتمالك نفسي عندما نظرت إلى تلك المقبرة الجماعية، لم أر من قبل أكواما من البشر هكذا تلقى فوق بعضها البعض بسهولة!.. صرخت بما أوتيت من قدرة على الصراخ، وأخذت في الركض نزولا نحو الجثث، أنا والكثير من الجنود. والآخرون لم يتجاسروا على الاقتراب منها.. ربما يمكنك بسهولة أن تتعامل مع إنسان بقسوة وهو على قيد

الحياة وحتى يمكنك قتله، لكن أن تتعامل مع جثة إنسان فهذا أبغض الكره عند البشر!.. أن تنظر إلى عيون خامدة، كانت تنظر إليك بحيوية، فهذا أمر جلل، أن تفقد روحا كانت تخاطب روحك وتقترب منك هذا جنون يفتك العقل!.. لقد كان الكثير منهم أصدقاء مقربين مني، كنت أحبهم كثيرا، ربما أكثر من عائلتي، رغم حداثة علاقتي بهم.. الظروف التي جمعتني بهم كانت الأهم والأخطر في حياتي؛ لذا فقد كانوا صادقين في صداقتهم لي.

في المساء كنا قد انتهينا من دفن الجثث، بعد محاولة صعبة لمعرفة كل هوية خاصة بصحابها، كثيرا منها كانت مشوهة ومحروقة بالكامل، ومنها ما كان عبارة عن أطراف متناثرة اختلط بعضها بالآخر.. كنا ننوي البقاء ليوم آخر، فقد أنهكت أجسادنا وذاقت أذهاننا إعياء نفسيا لما رأيناه اليوم، لكن ما حركنا للاستمرار في تقدمنا هو الحقد المتزايد للعدو، الكل اشتد غضبه تجاههم، وأصبح الهدف الوحيد لدينا هو النيل من أولئك القتلة، والفوز باصطياد أكثر عدد من أرواحهم.

وصلنا للقرية بعد عناء طويل، أحدثته الساعات القليلة التي استغرقها سيرنا، ألتقينا بصديق موثوق، أخذنا لأحد المعسكرات القديمة والمغلقة من سنوات عديدة سابقة، وضعنا فيها عرباتنا الصغيرة والكبيرة وباقي الأسلحة، أسواره العالية والمحطمة من جوانب عدة كانت تُحدث ظلالا مائلة تشكّل مع ضوء القمر صورا مرعبة غير مفهومة على الأرض. بعض الجنود خرجوا لتأمين الدائرة المحيطة بنا، خرجت معهم، كانت القرية في جزئها الصغير الذي دخلناه هادئة، لم نسمع أصوات العدو، المسافة التي تفصلنا عنهم الآن

غير بعيدة، كلنا استغربنا ركودهم، وخمّنا أنهم أصيبوا بهذه الحالة كما أصابتنا نحن - منذ قرابة الشهر لم نتصادم معهم - لكن البعض لم يؤمن بأفكارنا، وكانوا هؤلاء يرجحون أن هذا الهدوء سيعقب عاصفة خيانة كبيرة يدبّرون لها.

بزغ الفجر وكان أغلبنا نياما.. مجموعة قليلة أحاطت بدائرة المعسكر القديم وأخرى أحاطت بتلك المجموعة عن بعد، وثالثة صغيرة كانت بقيادتي، ذهبت بهم إلى مبنى عتيق قريب جدا من مكان العدو، شخص من أقارب صديقنا الموثوق في هذه القرية الذي استقبلنا معه رافقني هناك؛ ليدلنا عن المبنى. كانت خطتنا أن أذهب أنا بمجموعتي الصغيرة؛ لنقترب أكثر من العدو، وعند الفجر نبدأ هجومنا نحن وتتبعنا بقية الفرقة، وتبقى فقط مجموعة أخرى منا تركناها خارج القرية في الخلف لتأمين ظهورنا. كنت مستيقظا أنا وخمسة رجال نختبئ خلف باب أسوار المبنى القديم. كنت استرجع ما حدث منذ ساعات قليلة ماضية.. صديق صديقنا الموثوق به - من قبل آمر فرقتنا - ذهب فور دخولنا المبنى، قال لي عندما سألته عن عدم بقائه معنا: "سأعود لأطمئن على باقي أفراد فرقتكم هناك". ولأنني لم أكن مرتاحا لخروجه فقد أصرّرت أن يرافقه في رجوعه أحد رجالي، وبعد فترة قصيرة من خروجهم سمعت طلقات نارية، ثم سكن كل شيء حولنا. انتفضت أجساد جميع الجنود بعد سماع الصوت، سكتوا جملة، بعد أن كان المبنى يهوج بأصواتهم المتفرقة غير المفهومة لتداخلها، ولحق سكوتهم سكون مطبق عمّ المنطقة بالكامل، لقد أعتقد الجميع أن هجوما مفاجئا سيلحق بالطلقات النارية القليلة، فاستعدوا لرد الهجوم بالهجوم.. لم يحدث شيء.

خرج ثلاثة منا لتفقد الحدود الخارجية لمكان تمركزنا، ثم عادوا بسرعة وأخبرونا بأن المنطقة المحيطة آمنة وخالية من أفراد العدو. كان أقرب مبنى مجاور لنا يبعد مئات الأمتار فقط، كل شيء كان موحشا حولنا في هذه القرية، لم نسمع غير أصوات الكلاب التي كانت تنبح طيلة الليل، وراح نباحها يغزو المكان بوحشة، الخوف أصاب أغلبنا إن لم يكن معظمنا. بعد ساعة وقد اطمئن القلة أو ربما تجاوزوا مرحة الاطمئنان النفسي - فالحرب عادة ما تُلصق على النفس برودا متجهما - ناموا ببلادة وراحة واضحتين.

.. بزغ الفجر وثارت معه البنادق بطلقاتها من كل جانب، أسوار المبنى القصيرة اهتزت بقوة الطلقات التي بدأت تخترق جدران المبنى ونوافذه، كل جنودنا النائمين وغير النائمين اتجهوا صوب فتحات المبنى؛ ليسددوا ضرباتهم للعدو، بعضهم أصابته الطلقات، ومنهم من أُخرجت روحه مسرعة تعانق السماء.

لم نفهم أي شيء، ولم نحاول أن نفهم، فقط ما كان يهمنا لحظتها هي أن نردع النار الموجهة إلينا، ونوقّف مصدر إطلاقها. بدت دائرة محاصرتنا تضيق، صمت الزمن لدقائق، قُتل منا الكثير، رجع الزمن للوراء لدقائق أيضا، رأيت بعض الجنود من فرقتي يفرّون، والبقية توزعت للمواجهة في جميع نوافذ المبنى وفوق سطحه، كان أفراد العدو يختبئون ببنادقهم المتطورة في المباني المحيطة بنا، معظمها منازل لها ارتفاع يفوق علو المبنى الذي نتحصّن به. كل الجوانب المحاصرة لنا ملأى بهم؛ إلا جهة الخلف، لقد تركوها لنا، لا أدري لماذا؟ هل الخوف من غضبنا إذ حاصرونا بالكامل؟ أم

أرادوا منحنا فرصة للفرار؟. ومن تلك الجهة بالفعل فرّ بعضنا. ذخيرتنا قاربت على الانتهاء، أرسلتُ مساعدي ليتفقد باقي الرجال، رجع ومعه ما لايزيد عن العشرة، هؤلاء فقط من بقوا على قيد الحياة، قرروا ألا سبيل لنا من المقاومة، سنهلك جميعنا إذا تشبثنا بالمقاومة، قلت لهم: وما أدراكم بأن جهة الخلف مصيدة لأسرنا؟.. لا جواب.. خرجت وأنا أتأمل كل الجثث التي فَرشت غُرف المبنى، لقد تركناهم بلا دفن وذهبنا دون أن نودِّعهم. بعض الرجال الأشدّاء الذين صبغت هذه الحرب على قلوبهم شجاعة تفوق التصوّر لم يأتوا معنا، تركناهم وهم يفرّغون ما لديهم من إطلاقات في بنادقهم نحو العدو، أحدهم قال لي وقد أصرّعلى عدم مرافقتنا: "هذه لحظة المجد، بين الخوف والشجاعة فقط يكمن شبح الموت؛ لذا فأنا قد تجاوزت الخوف ورأيت شبح الموت، بذلك سأصل للشجاعة.. حتما سأصل إليها الآن، عندها سانتصر عليهم بهذه البندقية وبهذه الطلقات". ابتسمت له بحزن، وخرجت مسرعا.

لم يمض من الوقت الكثير، حتى التحمنا بفرقتنا التي استعدت للخروج بعد سماعهم للأصوات العنيفة التي أحدثتها إطلاقات نارية غير متوقفة أثناء اشتباكنا مع العدو، كنا قد عرفنا أن خيانة كبرى ألمّت بنا، وخسرنا بسببها محاربين أكفّاء، الصديق الموثوق من هذه القرية وصديقه الآخر اختفوا عنا، كان مخططا لنا استدراجنا إلى هذه القرية التي تعاون بعضا من أهلها مع العدو، لقد أدخلوهم مساكنهم وأعدوا لهم كل سبل الراحة، لقد ذهب الكثير منهم - خصوصا ممن أرادوا أن يبقوا في الحياد بين الطرفين- إلى قرب البحر للنجاة بأسرته. تفاقم الوضع واشتدت عزيمة

obeikandl.com

الرجال للانتقام، لقد لعنوا من في هذه القرية.. كنا مع مطلع النهار نتشر وسط القرية بعرباتنا وأسلحتنا وكل رجالنا، استقبلتنا الشمس بحرارة شديدة ذلك اليوم، لكن حرارة الرجال كانت أشد. عندما دخلنا للقرية اكتشفنا أن كل المنازل تحوطها خيانة من أهلها، كلها ملأى بالعدو، لقد انتشروا فوق الأبنية وبدأ اشتباكنا معهم وسط المنازل، ولأننا كنا في مناطق عارية؛ كان لابد لنا أن نستخدم الأسلحة الثقيلة، وقد استخدمناها بالفعل، أنهالت ضرباتنا القوية على المنازل بعد أن استقبلونا هم بطلقات القناصين من فوق الأسطح، لقد بدأنا بقصف المنازل دون هوادة، المشهد تحوّل أمامي - بسريالية عنيفة - إلى قتال أسطوري، كل الرجال كانوا يسددون ضرباتهم إلى أي جسم حي أو جامد، العدو كان مستهدفا.. أهل القرية أيضا كانوا مستهدفين.. المنازل والأشجار كانت مستهدفة.. أحد الرجال كان يصرخ: "هناك نساء وأطفال داخل المنازل، أوقفوا الإطلاق.. ربما جعلوهم دروعا بشرية.. أوقفوا الإطلاق"... كان صراخه غير مسموع، يتماهى مع صوت الأعيّرة النارية فيسمع وكأنه إطلاقات مصوبة نحو العدو. استمر قتالنا معهم حتى غياب الشمس.. وكنا قد انتصرنا هذا اليوم، قتلنا الكثير منهم، وبعضهم ترك ساحة المعركة هاربا. حين دخلنا إلى بعض المنازل؛ لإتمام النصر، كان منظرا آخر يعيق ذاكرتي الآن عن نسيانه، لقد رأيت أطفالا ونساء من أهل القرية، وقد قتلوا وهم محتجزين مع العدو في منازلهم.. هل يستحقون الموت لأنهم ساعدوا العدو؟ وهل عليّ أن أتذكر مشهد جثث رجالنا وهم يفترشون أرض المبنى الذي حاصرونا فيه؛ لأخفى مشهد مقتل الأطفال، وأعزّي نفسي بالانتقام؟.

كانت هذه الخواطر الحزينة تسردها المرأة العجوز علي مسامعي، بلسان الجندي الكهل، وقد علِمت بها من زوجته.

عدلت انحناءة رأسي من جديد على زجاج النافذة، وجعلت لنفسي تنساب بأفكار كثيرة، تماما كما تناسب جمجمتي مع تماوج اهتزاز عجلات الحافلة على الطريق القديم، حينها بدأ الليل يرخي سدوله، وتغطى إطار النافذة بسواد مطبق.. ونمت.

obeikandl.com

(4)

زهاء العشرين سنة التي أمضيتها في دراستي وعملي بمهنة الكتابة لم تحتويني من قبل حالة اهتمام مبالغ فيه لأي حدث يصادفني، لكن ما وجدته مع ذلك الكهل جعلني أهيم بواجباتي العملية المقدسة. كم نكون حمقى عندما ننكب على العمل بجد، نكتشف أن كل ما اشتغلنا به سابقا لا يعد في ساعات حياتنا الحقيقية؛ لذا فكل جهد نبذله في أعمالنا يكون - لاحقا - عبئا علينا، مع عبء ذلك الجهد.

الربيع ما يزال رطبا بنسماته العليلة، كان الهواء يعبق الأرض زهوا وانتعاشا ذلك اليوم.. جاءت زيارتي الثالثة للكهل، التي تلت ستة أيام لعودتي من بلدته، قابلني بحب وفرح، مد يده إليّ يصافحني بسعادة، كانت الابتسامة رغم غرابتها وشذوذها عن وجهه؛ إلا أنها أضافت له براءة طفل غير جميل، جلست معه خارج الشرفة بعد أن تخطينا حاجزا قصيرا يفصلها عن الفناء الخلفي للمصحة. أرض الفناء الجرداء المتصحرة التي تنتشر فوقها الأشجار البلوطية القديمة بعشوائية، تُلهم النفس عند الجلوس قربها بعطر ساحر يتعاظم في دواخلها فيعكس منها ذكرياتها التي عايشتها منذ الصبا. جلس هو على نصف طوبة يغطيها ورق كرتوني، وبكرم منه أو بإرضاء لي منه، جعلني أجلس على الكرسي بعد أن نقله من الشرفة. فرك لحيته القصيرة بشعراتها المتناثرة بأصابعه الأربعة، الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة، ألصقها جميعها في شكل يشبه المذراة ومررها عليها بتوتر، نظر إليّ لأحدثه عن أخبار

ابنه، كنت مترددا بعض الشيء، انتظرَ هو قليلا.. انتظرتُ أنا معه قليلا.. كلانا يريد من الآخر البدء في الحديث، طالت مدة الانتظار التي كان الصمت بطلها.. قال بعدما أرجع أصابعه إلى موضع اللحية من جديد:

– أظنك تحمل إليّ أخبارا؟.. هل عندك جديد بشأن ابني؟

– بالطبع..

صمت صمتا لا أخال أن فيه أي نوع من التفكير أو التأمل، وكأنه طفل مشدوه يتابع حكاية أسطورية لإحدى الجدّات، تسردها عليه بأسلوب خرافي شيّق. تابعت حديثي:

– لقد عرفت أنه قد رحل، وترك أرضنا.. منذ أن تركتك وأنا أبحث له عن عنوان.

– وهل وجدته؟

قال السؤال بلهفة.. وانتظر إجابته بلهفة.

– بالتأكيد.. بصعوبة وجدت عنوانه، لقد أرسلت له رسالتك، وحسبي أنها ستصله قريبا.

علت تقاسيمه الحادة ابتسامة عريضة أشبه بابتسامة شيخ زاهد من فرط عبوديته لله، ارتخت سحنته وعمّ بدل الوجع - الذي يسكنها منذ سنوات - فرح لا حدود لاستمراره. قال بكل بهجة:

– شكرا لك.. لن أنسى لك معروفك هذا، إنني الآن أشعر "براحة مميتة".

نظرت إليه باستغراب. فأكمل دون أن يجعلني أبادله الكلام:

– لا تعجب.. إنما الراحة والموت سواء، ليس لأن بعد الموت ستجد الأولى؛ لكن لأن كليهما غير مطلق، الموت له نسبيّة في قطعه للحياة، كذلك للراحة نسبيّة في قطعها للحزن.. إنني سأظفر بالحزن مادمت حيا، وسأظفر بالموت مهما امتلكت من الراحة في حياتي. كل نفس بما كسبت من جزاء راحتها رهينة، لتبعد عنها الشقاء. إننا أغبياء بالتأكيد، لا ندرك لعبة الموت والحياة، ولا ندري كيف يكون الفاصل بينهما، أي عقل يميّزنا عن باقي الحيوانات إذ كنا لا ندرك هذه الأمور!.. إننا تماما حيوانات لها نظام حياتي مسيّر، يستخدمه العقل بطريقة محسوبة سلفا، غير ذلك لا يفيد العقل في شيء.

تنهد بصعوبة، ثم صمت للحظة، واستمر في الحديث:

– هنا، في هذه المصحة اكتشفت غباء الناس الذين يدّعون علاجنا، كثيرا مايضحكونني، يطلقون علينا هنا اسم "فاقدي العقل".. آه...

ضحك بشدة فظهرت أسنانه الصفراء المتسخة غير المنتظمة، وقال وما تزال الضحكات تهز كتفيه:

– فاقدو العقل!.. كان يجب عليهم أن يسموننا "فاقدي النظام".. كم هم تعساء وحمقى.

قلت له:

– هل أنت فاقد النظام؟

– لا أدري.. إننا هنا نفقد كل شيء، ولا أظن أن النظام الحياتي سيكون له أهمية عندنا؛ لذا لا نشغل بالنا بالأشياء التافهة التي أهمها استمرار الحياة.

– وما البديل؟ هل الموت أفضل من حياة منظمة ومقيتة بالنسبة لك؟

– لا أفضِّل الموت عن الحياة، لكنه تجربة جديدة علينا، ستكون مغامرة رائعة لأي شخص مقامر.

– أتعرف ما الفرق بينهما؟

– أظن أن جهلنا بمعرفة هذا الفرق هو الذي يجعلنا نحيا بنظام وبلا عقل، أقصد العقل الحقيقي، وليس الذي نملكه.

– ضماننا بمعرفة الفرق وحل لغز الموت والحياة أمر غيبي؛ لذا كيف نحكم به ونحن لا نملك عقلا حقيقيا، وربما لا يملك بعضنا "نظام حياتي" كما أخبرتني منذ قليل؟

- الوصول لمعرفة جزء من الغيب هو الضمان، ولا أظن أن فاقد العقل الحقيقي سيطمح لنيل هذا الجزء.

أحسست برغبة في تغير المسار الذي سلكناه من حديثنا هذا - ففكرة الغيب تخيفنا نحن بني البشر- وقلت له مقاطعا لحديثه:

- إن أمي لطالما كانت تحكي لِيّ في بعض الليالي القاسية التي لا أنام فيها، قصصا أسطورية عن كل شيء، وكانت جميعها تشترك بذات الشيء.. كان الموت بطل كل قصة دائما، لقد جعلتني أعتقد بأن الموت عقاب يفتعله الله، فقط من أجل الأشقياء، وأظنها ليست مختلفة عن باقي الأمهات. فكرة الموت نمت في دواخلنا بشكل مختلف عما هي عليه.. أنا لست مثلك بالتأكيد، أنا أخاف الموت إذا كان عقابا.. أما إذا كان هبة من الله فلست أخافه.

وقف بصعوبة ونفض الغبار بيديه الاثنتين عن بنطاله من ناحية مؤخرته، وخطا للأمام فوق تربة الأرض الصفراء القاتمة تاركا بعضا من ضباب خفيف غير مرئي، كضباب الكلمات غير الواضحة التي قالها:

- إني أخالك تبالغ في بحثك عن الحقيقة، وأنك تجتهد؛ لتثبت لنفسك أنك قادر عن العمل بجد، وقد اخترت أكثر الطرق صعوبة، تماما كما يفعل الطامحون في بلوغ الجنة، وهذا طبيعي لمن في سنك.. إننا لن ننجح في أي عمل نجتهد فيه وهو غير مهيأ لنا، لا خير في الأعمال التي تُكلف جهدا كثيرا؛ وأنما أخيّرها تلك التي تُنتج نجاحا كثيرا.

(5)

كان مقدرا لي في تلك الجلسة التي جمعتني بالكهل أن اظفر منه بمعلومات أخرى حقيقية عن الحرب، لكنه أخذ يحدثني عن أشياء لا أريد سماعها، ولم أرغب في مضايقته بإلحاحي في طرح الأسئلة. لقد عرفت أن السرور قد هاجره منذ فترة طويلة، ولأني رأيت بعض الفرحة في محياه؛ فقد لزمت الصمت، وتركته يحدثني بما يشاء.

لقد أعطاني عنوانا لأحد قادة الجيش، كان هذا القائد يرأس منصب "آمر غرفة العمليات السرية" في تلك الحرب، وأخبرني بأنه لن يتوانى في إعطاء المعلومات التي أريدها، فهو رجل نبيل، أحبَّ الوطن وجعل من نفسه هبةً لترابه ومنح جلَّ عمره للدفاع عنه، قال لي: "فقط أخبره أنك آتٍ من طرف صديقك الجد المحارب"، وكان هذا لقب عُرف به الكهل أثناء الحرب.

عند باب ضخم لقصر كبير كنت أقف بجسدي الذي بدا صغيرا جانبه، أطرق جرسا معلقا بقربه، انتظرت قليلا، وبعد برهة فتح شاب يافع الباب، حيّاني بلطف واحترام، وعندما أخبرته على موعدي مع جده طلب مني الدخول. جلسنا نتحدث أنا والشاب في انتظار العميد المتقاعد الذي كان في السابق آمر غرفة العمليات السرية. لقد مللت انتظاره، خصوصا أنني اضطررت أن أجامل حفيده وأحدثه في أمور حياتيه سخيفة، وأنا أجاري لهجته التافهة التي يتحدث بها أغلب أبناء الجيل الحديث.

استقبلني العميد - بعد أن أكمل ارتداء ملابسه العسكرية - بمصافحة جيدة وقال لي وهو يبتسم بوقار:

– هل أبدو وسيما بهذه البدلة؟.. منذ زمن لم ألبسها.. قلت لنفسي سيكون من الملائم أن أظهر في مقابلة صحافية بهذا الهندام العسكري.

لم أستطع الرد عليه، فقد فاجأني بأن ظنّ أن حواري معه سيكون مقابلة رسمية؛ إنما كنت أنوي محاورته بشكل عادي بعيدا عن أضواء الإعلام الكاذب، فابتسمت.

– تفضل.. هل أحضر لك حفيدي القهوة؟ أم أنك لا تحبها؟.. ماذا تشرب؟

– لقد أخبرت حفيدك بأن يحضرها.. أقصد القهوة.

– حسنا تفضل.

وعندما حدثني عن بعض الذكريات غير المهمة - على الأقل بالنسبة إليّ - مع صديقه الكهل (الجد المحارب) وعن علاقتهم الحميمة ومواقف طريفة كانت بينهما، أردت أن أدخله في حوار عميق عن الحرب. بدأ للوهلة الأولى يستعرض بطولاته، والأدوار المهمة التي تقلّدها وأشرف عليها بنفسه، وبدأت أنا أحاوره بأسئلة صحفية بدائية كي أشعره بأهمية الحوار، كان مبتسما وهو يجيب عنها.. فجأة تغيرت ملامحه بجدية تامة حين سألته:

obeikandl.com

- لماذا شاركت في الحرب؟

ارتبك قليلا قبل الرد، وقال بسرعة وكأنه عرف شيئا ينقذه من الإحراج:

- من أجل المبادئ..

شعرت باستصغار منه لهذه الكلمة فقلت:

- وهل تستحق المبادئ كل تضحيات الموتى الذين فقدناهم؟

- الوطن لا يأبه للموتى، الوطن يعيش بالأحياء فقط.

- والذين ماتوا في سبيله؟ كيف تنظر إليهم إذا؟

- لا أحد يموت في سبيل وطن، ولا أحد يموت في سبيل أحد.. إنها كلمات تقال للذكرى فقط.

- وكيف تكون المبادئ التي جعلتك تخرج للحرب؟

- هي أن تعرف أين تكون مصالحك، كيفما تراها.. ليست المبادئ أخلاقا كما يعتقد عقلك الصغير المتلبّس رداء الطهارة، ويعتقد كثيرون مثلك. أنها سلوك جماعي لنيل مصلحة إنسانية، أكانت مفردة أو جماعية، المهم الإيمان بهذا السلوك. أتحسب أننا نحن ملائكة نمتلك الخير فحسب في سلوكنا؟.. إن المبادئ التي يُنادى بها، ملاصقة في أذهان البشر منذ أن جعلت القدرة الإلهية برهانا لغُراب يُعجز أبا البشر عن مواراة سوءاته.

obeikandi.com

– وهل ترى الحرب وسيلة لتحقيق المبادئ المنشودة؟

– عندما يشتد الأمر، وتضيق مساحة تحقيقها، تكون الحرب المسلك الوحيد لإنقاذ البشر، وتبدو كأنها حنكة إلهية لإخراجهم من مصيدة أوقعوا أنفسهم فيها، فإذا تمكنوا من مغالبة الطرف الآخر - الذي يظلمهم - اعتقدوا عندها أنهم قد أخرجوا أنفسهم من التعاسة الأبدية.

– كيف يقامر البشر ببلوغ السعادة، مقابل موت رخيص؟

أجاب بسرعة:

– هل الموت من أجل الوطن يكون رخيصا؟

– أنت أخبرتني أن لا أحد يموت من أجل أحد، حتى وإن كان الوطن..

– بالطبع.. ليس كل شخص لديه القدرة على إدراك ذلك. إن الاعتقاد بالموت - طوعا - من أجل الوطن، خدعة ابتكرها الإنسان بنفسه وآمن بها منذ القدم. ثمة رجال كُثر أهلكتهم الحروب، ماتوا للوطن فعاش الوطن بأناس آخرين غيرهم.. إن ولوج الجموع في عمق الحرب وراؤه القلة التي تقودهم، هناك إقناع جبري يفرضه مستخدمو الكذب المشروع على هذه الجموع، والحجة دائما هي إنقاذ أرضهم التي يعيشون فيها.. هكذا العرف في الحياة يخبرنا أن على أبناء الوطن أن يقدّموا دماءهم وأرواحهم دون تردد حين يتوجب الدفاع عنه.

– حسبي أنك لا تقصد بالأرض ذلك المعنى الضيق للوطن.. إن الوطن شرف الشرفاء الحالمين وغير الحالمين، إنه تماهي الروح الإلهية التي تسري في أجسادنا مع روح جديدة تنمو برفق مع التراب الذي نعيش فوقه...

ثم صمَتُّ لوهلة، وغيّرتُّ حديثي عن ماهية الوطن، فلم أجد كلمات كثيرة تليق بوصفة، وقلت له:

– أنت قلت "الكذب المشروع".. هل يصلح النضال، والكذب يُزيّن نداءه؟

– الكذب عصب الحياة، ليس ثمة حدث نفتعله يخلو منه.. إن حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية عمادها الكذب.. قائمة به، ولا استمرار لها إذ توقفنا عن تداوله.

– ما جدوى النضال في سبيل تحرير البشر، إذ كان النفاق هو الوسيط بينهم وبين الوطن؟

قال ببساطة وكأنه يستهين بعمق السؤال الموجه إليه:

– نحن لن نتخلص من الكذب إذا كنا قد رفضناه.. إننا نرفض أية طبقة أو جهة تستولي على تراب الوطن، ونتخلص منها، أما الكذب فهو وسيلة تستخدم لهذا الخلاص.

– ليست كل الوسائل تصلح للاستخدام في الأمور النبيلة.

obeikandl.com

– صلاحية تلك الوسائل متوقف على نجاحها.. كلما كانت ناجحة، كانت صالحة، دون أي حسابات أخرى.

– إذاً فقتل الناس يكون ذنبه على عاتقكم، وليس على عاتق العدو، لو كان نبل القضية لا يهمكم؟

– لا أظن أن قضية تحرير الوطن لا تضاهيها أي قضايا نبيلة.. ثم أن هذه الشعارات أسمعها من المثقفين فقط، أصحاب الأقلام، الذين ينادون بها؛ لأنهم لا يملكون غيرها، ولا يعملون شيئا معها، سوى الكلام والفلسفة غير المجدية.

ثم أضاف بعض الجمل، وكأنه يريد قفل هذا الحديث:

– اسمع.. إنّ الثورات التي تحرر الوطن، لا تنهض على الزهور والشموع والكلمات النبيلة، أنها لا تنهض إلا بالتضحية.. وإنما أقصد التضحية بالروح والجسد.. لا تتعب نفسك تجاه نبل زائف لا يجدي في نظري؛ إلا بملء صفحات تاريخ مزوّر يُسجّل لأحداث تلك الثورات.

أخذت بعدها أبادله بالجدل الكلامي، وكان كل منا يريد فرض فهمه لتلك المواضيع، حتى إذا أحسست أنه رَغِب في إنهاء المقابلة، قلت له مجاملا:

– سرّني لقاؤك، ومنحك ليّ هذا الوقت، لكنني أرغب في قراءة رسالة كتبها صديقك (الجد المحارب) لابنه، أعطاني إياها لأرسلها إليه، هي لا تخصّك، إلا أنني - وقد حدثتني عن حب الوطن - أرغب في تلاوتها عليك.

ثم قرأتها:

– "عزيزي.. لقد مرّ وقت طويل جدا على غيابك.. في المرة الأخيرة التي رأى فيها بعضنا البعض، منذ فترة ليست بقصيرة، كان بشكل مختلف عما هو الآن.. الآن أراك في أفكاري فقط.. وقد تغيّر كل شيء، المكان هو المكان، والطبيعة هي نفسها، لكن الفكر انحرف كثيرا بطريقة عذبة.. كنا نعرف القليل عن الوطن، وظننا، دون معاناة طويلة أنه يعرفنا جيدا، لقد ولدنا فيه دون حب.. تعلمنا أن الحب خطيئة!.. وأخطأنا بمسميات الفضيلة، فساقتنا لكره الوطن، وأصبح لهذا الكره زهد عميق أسفر عن تنحي المبادئ التي كان علينا اكتسابها ولو بجينات وراثية...

عزيزي.. لقد أدركت الآن حجم الكارثة التي آلت إليها نفوس البشر هنا!.. لقد عرفت أن جميعهم يكره الوطن، والكل يفضّل نفسه عنه، ويستبق شخصه التافه عن جلالته العظيمة. لقد تجاهلوا ماهية الوطن.. الكل ظنّ أنه (خريطة) لا تساوي كيلومتراته جسدنا الهش، المخلوق من طين يكاد يكون هو ترابه.

ليس الوطن أرضهم، لكنه الأرض والحق معا، الأرض لهم، والحق له... آه يا عزيزي بما أخبرك؟ لقد تهاوت قواي تجاه ما يفعلون، لم أعد أستطيع احتمال عبء جهلهم، إن شقاءهم يكاد يفوق مقدرة الطبيعة نفسها.. الشيء الوحيد الذي يخفف الأحمال من فوق كاهلي المثقل بالهموم، هو الكتابة إليك.. إنني في شوق بأن ترد عليّ بالكتابة. أتمنى لك سائر أنواع الخير والبهجة الأبدية"

(6)

تهللت أسارير الليل القاتم عنفوانا أليما، صدح بوحشة مريبة في مخيلة الكهل، وجلب مع وحشته صورا قاسية بدأ يستذكرها معي، عندما جلسنا في غرفته الخانقة بالمصحة. كنت أهتم بزيارته في أيام متقاربة جدا.. كانت قوانينهم هناك صارمة بخصوص الزيارات وخروج المرضى؛ إلا إنني أملك علاقة صداقة ببعض العاملين فيها من أطباء واختصاصيين، مكنتني من المجيء إلى المصحة متى رغبت، وثمة أمر آخر جعل من دخولي لزيارته مُيسّرا، فقد لمست في أغلب الموجودين بذلك المكان إهمالا كبيرا للنزلاء ولهذا الكهل بالذات، وكأنه أصبح في نظرهم رسما باقيا أثره من طللّ عفا عليه الزمان!.. (اللعنة على قسوة الإنسانية ومرارتها.. ما يفيض عنها من جرم، يستبق أفعال الأبالسة، ويكاد يجعل الأنبياء يخجلون أمام الله من تلك الأعمال المخزية، وهم يقدمون له أممهم).

استرخى الكهل على سريره جلوسا بطريقة غريبة، أسند ظهره على مؤخرة السرير وجعل ركبتيه قريبتان من صدره عندما رفعهما ناحية وجهه، وأخفض رأسه ليقترب منهما. وقع نظري وتسمّر على بقايا جروح مضمدة انتشرت على صدره، كأنها بقايا لشضايا احتضنته بشغف عندما خرجت بشراهة نحوه من إحدى القنابل. لوى رقبته يمنيا ثم للأمام، ولَّج برأسه بهذا

الاتجاه.. تمركزت عيناه صوب وسادته غير النظيفة، وقال بلهجته الرصينة الجافة:

– يموت آلاف البشر في اليوم الواحد على هذه الأرض، كل واحد منهم يختاره القدر بالطريقة التي تطلبها المعرفة الإلهية له. فساعات الإنسان محسوبة، "هذه مُسلّمة".. والكل يعي ذلك، لكن الغريب أنهم يجازفون بالموت من أجل تمديد الحياة، وتأمينها بأية طريقة! وكأنهم يعتقدون - جزافا - بفكرة بقاء الموت بعيدا عنهم، لو لم تكن ساعة الحزم قريبة منهم في تلك الأثناء. هذا الأمر شائك ومخيف، فالإنسان يجلب نفسه للموت، ليس للموت قيادة مطلقة في إطلاق سراح روحه من جسده...

كان يحدثني بذلك ويتوقف عن النطق بين الفينة والأخرى، ثم يطول سكونه قليلا، كنت أترقبه بلا حراك أو كلام.. أقام الصمت جدارا بيننا؛ إلا أن يَنبح كلب أو تُسمع أصوات سيارات بعيدة من خلال النافذة المطلة على الاتجاه البحري للمدينة، ثم يخيم الصمت من جديد. في ذلك الهدوء المسائي مع صمته كنت أفكر مع نفسي: "لا سيما وأن نفوس بني البشر تختلف في تركيبتها وأهوائها، لكنها في مُجمل تعددها تتفق في أمر واحد لا خلاف فيه ولا سمو عنه.. هو حب الحياة والتمسك بآخر حبالها.. كل من يقول غير ذلك عن نفسه، فهو يدري جازما في قرارة نفسه بأنه كاذب.. لا أحد يحبذ الموت، مهما كان مقدار تعاسة الحياة التي يتعايشها".

obeikandl.com

حطم الكهل جدار الصمت وقطع تلك الأفكار وأردف قائلا كأنه سمع بما كنت أخمن:

– أنا بالفعل قد أحببت فكرة حصول البشر على ساعات نهاية.. تماما كما نحب الإيمان بالحياة الأخرى، فيمكننا أن نحب نهاية الحياة الأولى وننتظر بداية الثانية.

سألته:

– هل أحسست بهذا الإقناع أثناء فترة الحرب، أم بعدها؟

– أغلب الجنود الذين عرفتهم في تلك الحرب، أصابتهم حالة يأس مشابه لتلك التي أمتلكها الآن، ولو أن الكثيرين لا يجهرون بتلك الخيبة، لقد أيقنا بمنطوق واحد.. "لا حرية ولا عيش كريم مقابل أفعال تنتهك مبدأ الإنسانية".. وبالطبع مهما كانت قضايا الحروب وأهدافها، تظل ردودها مخالفة تماما للإنسانية ولمبدئها، ولا يمكن أن تمتلك حقا مشروعا في مساسها بدماء البشر.

نظر عبر النافذة الصغيرة بنقوشها الحديدية البالية والقريبة من مقدمة سريره، التي تبدو للناظر بأنها الشيء الوحيد الذي يكسر بلادة المعمار لهذه الغرفة الكئيبة، وتابع الحديث:

opeikandi.com

– صارت حياتي أشبه بنهر جاف، فُقدت من حوله الحياة، تصيب أرضه حرارة الشمس نهارا، وتفرسها برودة الرطوبة ليلا.. هكذا ستظل منذ أن عرفت الحرب، وستبقى حتى أطرق باب الموت لأعبر خلاله إلى الفسحة الأخرى.

هززت رأسي دون وعي مني؛ ولأعبّر عن عدم فهمي، كذلك عيناي وشفتاي عبّرت هي الأخرى بحركة تؤكد له ذلك، فعقّب الكهل:

– التجنيد مهنة العاطلين عن العمل، كل الشقاء يلحق بمن يتلبّسه رداؤها.. لقد أحببت الاقتراب من تلك المهنة، والخوص فيها، ورغم عدم إدراكي لها؛ إلا أنني عشقتها، ربيت فيها ريعان شبابي، وفهمت - بالخطأ - أنها مهنة الشرفاء.. فرحت لذلك سنوات قليلة، وحزنت بعدها - لذلك أيضا - سنوات طويلة.

استطرد - بعد هذا الكلام - في حكاية أخرى من الحرب، ربما قد تذكرها توّا فقال:

– أذكر ذات نهار رطب ومنعش من "نهارات" الجبهة القاسية، أذكر جلوسي هناك مع صديق مقرّب مني، نسيت اسمه الآن، أو ربما تناسيت.. فالأسماء خلال فترة القتال في الحرب غير مهمة بالنسبة لنا، كان كل ما يهمنا لنربط أوصال الصداقة مع الأشخاص هناك، هو فقط معرفتنا بولائهم

opeikandi.com

للقضية التي نحارب من أجلها، غير ذلك لا يهمنا. جلسنا أنا وهو نتدارك ذكرياتنا الأسرية الرائعة.. كلانا كان يسْعد باسترجاع الشريط الحياتي اليومي له.. هو كان يحدثني بفرحٍ عن مولوده الجديد، وعن شوقه للرجوع بعد انتهاء الحرب لرؤيته. صديقي الوفي والغبي لم يفهم بأن الموت اختاره معنا.. الموت عندما يقرر زيارة المرء فلن يتراجع، ليس بالضرورة أن يعجّل بالقبض على الأرواح ويرسلها بعيدا عن الجسد، لكنه قد يختارها ويبقيها أسيرة عنده، يطلقها متى يشاء.. تماما كما يحدث معي الآن، فأنا أسير الموت منذ خروجي من ساحة الحرب ولا أعرف متى يأخذني إليه.. كل عمري - بعد انتهاء الحرب - لا مذاق له، أعد ساعاته؛ كي تمر بسرعة وارتاح عند توقفها.

كنت أترقب حديثه الشجي المحمّل بذكريات منعشة رغم آلامها.. كانت الحكايات التي يسردها عليّ، رغم القسوة التي عاش هو مرارتها؛ إلا أنها كانت بالنسبة إليّ حكايات لذيذة، لقد أحببت سماع كل مواقف العنف التي مرّ بها، ولا أدري هل سأحبها إذا كنت أنا الذي مررت بها بدلا عنه؟.. تلك غريزة جُبِل عليها البشر.. "النظر إلى آلام الغير برؤية سطحية، وتقبّلها بنمط المتفرج المُمتّع، دون الغوص في أغوارها".

كنت استمع إليه بتلك الغريزة أيضا.. استمر في حديثه وهو يلوح بيديه حين يصف الكلام:

– بينما كنا جالسين أنا وصديقي، وبقية الجنود كانوا في استراحتهم منتشرين في البقعة التي احتوتنا من الأرض، بشكل عشوائي، مقتربين من بعضهم بطريقة تخلو من الخبرة العسكرية، وتخلو من حنكة الحروب.. بينما ذلك، حدث فجاة أن أنهالت النيران من ناحية بعيدة، كانت قنابل مفجعة، لم نألفها من قبل.. سقطت بقوة وانفجرت وسطنا، كانت كثيرة، لا تتوقف، سقط معها الكثيرون منا، قتلى وجرحى.. انبطح منا من بقيّ معافىً، والتصقنا بالأرض.. لبثنا متسمرين بموضعنا ولم نفعل شيئا.. لم نستطع الرد بإطلاق النار على العدو؛ لأننا لم نعرف من أين يقذفون قنابلهم، ولأننا لم نستطع الوقوف خشية إصابتنا بنارها القوية.. بدأ الآمر يصرخ من بعيد.. كان صوته أصمّ، لكنه حاد جدا، وموجها إلى كل الاتجاهات: "ازحفوا إلى خلف التلال الرملية.. هيا ازحفوا.. انتشروا، ولا تبقوا مقرّبين من بعضكم.. هيا عودوا إلى الخلف... ازحفوا". كادت حنجرته الجافة تخرج مع آخر الكلمات التي نطقها.. لحظات مرّت وأنا أوزع نظري - بخوف - إلى كل الأماكن حولنا، ونسيت للحظة أن أعرف ماذا حصل مع صديقي.. التفت إليه، كان قريبا مني، تفرّسته جيدا، لم تصبه نيران القنابل، فقد أبقى جسده منبطحا على الأرض وظل ممسكا سلاحه الضخم (مضاد الدبابات) بقوة، قال لي بحماس عندما نظرت إليه: "اتبعني.. سنصعد فوق ذلك البيت المحطم؛ لنتمكن من رؤية أسلحتهم ونتمكن من قصفهم، هذه فرصتنا للقضاء على أولئك الأوغاد.. ازحف ورائي.. هيا". لم أرد عليه إلا بنظرات يائسة، ولم أنطق بكلمة، تقلّص وجهي،

كأنني رددت عليه، أو ربما قد تكلمت.. أو صرخت.. يبدو عليه أنه لم يسمعني حين ترددت هذه الأفكار في ذهني أو على الملأ: "هل أنت مجنون، كيف نذهب إلى هدف مكشوف.. ونحن بهذا السلاح الضعيف.. أنه انتحار، وموت محقق".

زفرت رئتا الكهل فأخرجتا هواءً قويا جعلته يفتح شفتيه رغما عنه وكأنها أبواب نافذة فتحت على مصراعيها من هول ريح هزّتها. خيّم السكون على ذهنه لوهلة، ثم استرخى وأنزل ركبتيه ومدّ كامل رجليه على السرير.. ارتاح في جلسته وأكمل:

- الانتحار في الحرب، كلمة يقولها الجبناء.. أما الشجعان فيؤمنون بأن تقديم الروح وإهدارها بسهولة لن يكون انتحارا.. إنه الشرف والتضحية والإيمان بالوطن، والواجب والكرامة والخير، والفضيلة.. لذلك وجب عليه أن يقدمها كلها على جسده وروحه فقط.

كانت كلمات الكهل تلقى عليّ بسرعة وهو يتحدث دون توقف:

- صاح صديقي بعد أن ابتعد عن موضعنا الأول: "تحرك..هيا اتبعني، وأبقى منخفضا". لقد خرج من نيران قنابل العدو، لكنه اتجه بالقرب منهم، سيصعد لأعلى نقطة تمكّنهم من إصابته، إنه عنيد.. لا يقف شيء في طريقه، ذهب هناك وهو يحمل سلاحه الثقيل ويجر معه قذائفه الثقيلة أيضا..

opelkanal.com

زحفت خلفه، كنت أريد أن أمنعه، ولأني عرفت أن هذا محال، فقد تبعته بصمت، أخذ خياله في الابتعاد عني كثيرا، فخفت أن يظن بي سوءاً؛ لذلك نهضت وجسدي ممدود للأعلى، وركضت نحوه. حين وصلنا إلى البيت القديم المحطم اتجهنا إلى أقرب أسواره العالية من ناحية تمركز العدو، أخبرني بسرعة - بكلمات لا يزال صداها في ذاكرتي - عن رغبته في تسلّق السور؛ كي يسدّد لهم ضرباتٍ قريبةً وقاضيةً.. ساعدته في جلب بعض الأخشاب الطويلة وبقايا معادن كانت متناثرة في الجانب الخلفي من البيت، رفعنا خشبة متينة ووضعناها على علبة معدنية ضخمة وأسندنا قاعدتها ببعض السيقان المعدنية.. صعد بصعوبة فوقها، حتى وصل لأعلى قمة في السور، رأيت الذهول في عينيه عندما لمح العدو.. كان عددهم كثيرا، وقوتهم جعلتهم يقتربون منا ويلتفون حولنا. أمسك صديقي سلاحه وجهّزه.. أداره باتجاه إحدى عربات العدو وقذف بها.. أشعل النيران فيها، أعدّ قذيفته الثانية، وصوّبها بسرعة نحو عربة أخرى.. فجّرها، ونظر إلى متبسّما ثم قال ضاحكا: "لقد أسقطتُ الثانية.. الأوغاد سأدمر عرباتهم، سأنتقم لكل شخص قتلوه من أفرادنا". وهو يضع الثالثة في مقدمة السلاح، التفت إليّ وطلب مني أن أزوده بالقذائف الموجودة بالأسفل.. حملت واحدة.. تشبثت وصعدت على العلبة، ثم رفعت رأسي للسماء، ومعها رفعت يدي كي أعطيه القذيفة.. وقبل كل شيء من ذلك، تسمرت عيناي على دماء نزلت من ناحية جسده وأغرقت الخشبة، سقطت بعدها جثته قربي، لقد أصابه أحد القناصين المأجورين،

كانت فقط رصاصة واحدة اخترقت جمجمته، رصاصة صغيرة، لكنها بحجم أرض كاملة، وبحجم وطن، كل الأحلام التي أردتها معه بعد انتهاء الحرب سقطت مع جثته، كل الآمال التي انتظرتها معه اغتسلت بدمائه.. بدأ بعد ذلك المشهد القصير والقاسي، مشهدا أشد شراسة، الأوغاد لم يتركوا لي فرصة محاكاة روحه وهي تهرب من جسده، انطلق وابل من الضربات القوية، كانت قنابل مختلفة تسقط على البيت، هزت أسواره وحطمتها وأخذت تجتاح جدرانه، لقد علموا بوجودنا فظنوا أننا كُثر، أصابتهم هستريا جماعية، الكل بدأ يقذفنا بالنيران.. حملت جثته وخرجت بألم وصعوبة.. تركتهم يحطّمون البيت من ورائي.

أجهش الليل وطلع مع سكونه حزن جديد.. ألم غض تكوّن في عيون الكهل، كل كلماته السابقة خرجت تئن من حسرة نامية.. كانت تلك الحسرة تولّد في كل يوم ألم جديد.. لاح خلف حكاياته وجع اختلقته السنون التي عرف خلالها الحرب.. طافت نجوم ذلك المساء معنا أرض المعركة، وكأنها تجمّعت قرب النافذة لتستمع لحديثه.. لقد تركتُّ الزمن خارج الغرفة عندما دخلت، أخذني إلى ماضيه دون أن أشعر، وقد أبقاني طوال ساعات الليل صامتا، منصتا له، دون أن تنبس شفتاي بكلمة واحدة.

(7)

راح الشفق المشتعل ينطفئ شيئا فشيئا، عندما كنت مقابلا في جلستي - على صخور قريبة من البحر- فسحة السماء القاتمة، كانت الأمواج الهادئة تداعب السطح الأمامي للصخور المخضرّة، تلامسها حينا لتبللها برطوبة ميائها، وتبتعد عنها حينا لتنساب بوداعة عن سطحها. في تلك البقعة كان للهواء رائحة طرية لا زالت أشتمها حتى هذه اللحظة.. كادت نسماته تخترق جسدي؛ إلا أنها لا تقوى إلا على دغدغته، ويصبح جسدي والهواء في وزن واحد.. أصبت حينها بسكر لا يفتعله حتى الخمر الثمين. لقد أنستني الثمالة التي أصابتني من ذلك الهواء اللذيذ، لماذا أنا هنا؟!.. لا أقصد وجود جسدي في المكان، وإنما وجود فكري في الجسد، فهو يظل أحيانا مفصولا عنه، ما يلبثا أن يندمجا، حتى يصعب على تلك الأفكار مجاراة الجسد.

جلست بحذر على أقرب صخرة للبحر، لم أهتم لتبلل ملابسي وتلطخها.. أحيانا ما تعجبنا الفوضى كثيرا؛ لأنها تنسينا همومنا . فتحت حقيبتي البنية القديمة، المصنوعة من جلد بقري فاخر، وأخرجت مجموعة من أوراق مهترئة، تبدو من فرط عتاقتها وكأنها مخطوطات "برنابا"[٤]..

---

(٤) "مخطوطات أنجيل برنابا" التي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي، وهذا أنجيل يحمل داخله التبشير بنبوءة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام.

كانت تلك رسالة مطولة بعث بها الكهل لابنه، أردت قرأتها في جو صافٍ، فجئت هنا. قلّبتها ظهرا وأمعنت في شكلها جيدا، ثم شرعت في ترديد كلماتها مع نفسي، بعد أن قرأت سطورها لأكثر من مرة.. كنتُ شغوفا بها، وكأنها أرسلت إليّ:

" عزيزي.. أكتب إليك عندما يعتريني شعور امتلاك الكون، هل تعلم أنه باستطاعتك امتلاكه؟.. فقط أبحث عن ذاتك.. أبحث عنها وحدك دون اللجوء إلى المستضعفين من أهل الأرض.. نعم يا أيها المحب على قلبي، إن أهل الأرض ضعفاء ضالون، هائمون، لا يعرفون معنى نشوة النفس، ولا يدركون معنى امتلاك حتى ذواتهم.. قوة الذات تكمن في مقدرتك على البحث عن الكون، ولا تعتقد أن البحث يكون جغرافيا؛ بل روحيا، إن الروح تبقى في جسدك فترة قصيرة، لا تسجنها داخله، أطلق عنانها، واذهب معها، أينما تأخذك، لا تتردد، اذهب واجعلها تساند رغبتك في امتلاك الكون.

عزيزي.. أكتب إليك من شرفة الغرفة الضيقة، التي ينام فيها جسدي فقط، أما أفكاري فهي تحلق خارجا، غير أن ذكرياتي المفجعة تلاحقني بهموم صغيرة مستمرة، أشبه بهموم بائع الأسماك وهو ينثر باستمرار، المياه على بضاعته، خوفا من تلفها.. إني أخاف من تلف ذكرياتي، ألمّعها دائما بذلك الوجع، الذي سببه غيابك.

إنني أكنّ احتراما شديدا لوالدتك الميتة وأحبها كثيرا، لكنني أمقتها لساعات طويلة وأنا أتذكرك.. كيف توافق على تطوعك في الحرب، وترسلك هناك، وأنت لازلت يافعا؟.. إنني أمقت كل الأمهات وألعنهن.. عاطفتهن تجاه الوطن تفوقت على عاطفتهن تجاه أبنائهن، لقد باعت كل واحدة منهن ابنها للأرض دون مقابل! هن تعيسات اليوم، تماما كوالدتك الميتة.. لقد فقدتها كما فقدتك أنت، أخبروني أنك رحلت عندما ماتت أمك، لم ألبث أن "أحيا" كثيرا في هذه البلاد وأبحث عنك، فقد زُجّ بي إلى هذه الزنزانة الاجتماعية.. إني الآن أيقن معنى التضحية في سبيل اللاشيء، أدركت أن الوطن يكافئنا بالعدم، مهما قدمنا له من تضحيات جسدية.. وإن الموت أو العيش في سبيله سيّان. أنظر إلى الآن، إنني أحيا حياة الموتى، ربما أكون قد بالغت في الوصف - لأنني لا أعلم معنى الحياة بعد الموت - لكنني معلّق بينهما، لقد دفنت في عالم الأحياء.. يالهُ من شقاء أن تحيا الموت وأنت غير ميت. منذ أن فقدتكما تناسيت طريقة العيش مع البشر، وتجاهلت طعم الحياة الذي تذوقته سابقا.. ظللت بعد هذا الفقد شخصا تائها بين الآخرين، كشخص مبعوث من بين الموتى، في البدء شعرت بغضب شديد، ولكن ما لبث أن انتابني شعور الشفقة تجاه الأحياء.

عزيزي.. دعني أحدثك بحكاية الفراشات.. منذ كنت طفلا، لم أرع لها اهتماما، كانت بالنسبة إليّ مجرد مخلوقات جميلة قادرة على الطيران، تماما كالعصافير الملوّنة، أو الحمام النادر، لم أحلم يوما بصداقتها، أو الاقتراب منها.. أثناء الحرب، كنت أنتظر قدومها، أركض وراء كل فراشة تصادفني، اتمايل مع سمفونياتها الراقصة... ذات يوم سألني أحد الجنود ونحن نلهوا

ونغني في ساعات الحرب الراكدة - عندما يملّ العدو من هجماته، وكأنه يتفق معنا بهدنة غير شرعية - سألني بحضور إحدى الفراشات قربنا: (هل للفراشات صوت جميل مثل العصافير؟.. هل تغني مثلنا؟)..

بالطبع لم أطفئ شعلة الفضول لتساؤلاته، لكنني قلت له: (ربما هي لا تغني.. لكنها تملك سعادة أخرى، تعبّر عنها برقصاتٍ رائعة، تبدعها أثناء الطيران.. برقشة أجنحتها الملونة تضفي لها كلمات وألحانا ساحرة يفهما جنسها فقط). لقد منحتنا الفراشات دليلا ذات نهار.. كنّا على مقربة من ساحل مليء بالنخيل، ترابه طيني وأرضه رطبة، يختلط في بعض الأماكن بحمرة دم رجالنا المسفوك من قبل العدو، يلي موقعه الجغرافي بلدة تم تحريرها من قبل قواتنا، باشتباك طالت مدة عنفه لأكثر من أسبوع ، فقدنا خلاله قرابة الخمسين جنديا ومتطوعا.. كنّا نعدّ أرقام الموتى والجرحى دون أن نهتم لأرقام عددهم، لقد بات أمر عدّ الموتى عندنا كعدّ العربات التي نفقدها.. كانت سياسة جيشنا الصغير أن يضع فرقة صغيرة في مكان التقدم قبل دخوله بالكامل؛ لتمشيط المكان والتأكد من خلو أي وجود للعدو، كذلك للبحث عن الجثث والمفقودين . لقد رأيت فراشة تحلّق في الفضاء بعيدا، كنت أؤمن برسائل الفراشات، فهي تملك اتصالا روحيا مع الطبيعة والبشر؛ لكن هذا الاتصال يختبئ خلف مطالب الحياة الملحّة.. ذهبت لأراها عن قرب، فقد كانت ترفرف فوق بقعة بعيدة من مكان وجودنا بالساحل، وعندما اقتربت من موضعها، رأيت أحد المتطوعين، وقد غطت الدماء جُلَ جسده ووجه، ملابسه كانت متسخة وممزقة، مغطاة بسواد أنتجه اختلاط الدم بالطين، والحروق تنتشر على أطرافه العلوية، رائحة الدم المجمد تفوح

من ملابسه، لم يكن باستطاعته تحريك شيء من جسمه؛ إلا عينيه وشفتيه الجافتين، دنوت منه وحملت نصفه العلوي برفق ليجلس، نزعت الحقيبة من ظهري وألقيتها وراء ظهره الملتهب بجروح دامية، اعتصرت ملامح وجه ألم شديد جعله يطلق صرخة مدوية..

أمسك يدي اليمنى بيسراه النازفة، وضغط بكامل أصابعه عليها، أنغمست أصابعنا في دمائه القاتمة الحمرة، ثم علت وجهه ابتسامة حزينة وقال لي بصوت أليم: (انظر لهذه الفراشة، لقد ظلّت ترافقني طيلة اليومين الماضيين وأنا أصارع قسوة الجروح التي نهشت جسدي، فلا أستطيع بسببها المشي لمسافات بعيدة، لقد نزفتُ كثيرا، وما زلت أنزف.. كنت أنتظر الموت يفاجأني بلحظاته المفجعة، كانت عيناي غارقتين في الدم، كل شيء حولي أراه بلا ألوان؛ إلا هذه الفراشة التي تمعنتُ ألوانها الزاهية مرارا، هي من منحتني أمل الحياة.. أنا أعرف أن الفراشات تقف على الأشياء النظيفة والعطرة فقط، وبالرغم من ذلك فهذه الفراشة حلّقت فوق جسمي كثيرا ووقفت على يدي الملطخة!..) فرددتّ فورا عليه؛ كي أواسيه، وأنهي التعب الصادر من حديثه: (أنت مليء بالطهارة، وهذه الدماء لن تطلق إلا رائحة المسك؛ لهذا فالفراشة ظلّت بقربك.. لا عليك سيتم نقلك للمشفى.. المهم أنه عليك الآن ألا تجهد نفسك). أنصت لكلامي السريع، ثم مدّ يده داخل جيب بنطاله.. أخرج منديلا قماشيا متسخا وأعطاني إياه.. فتحته فوجدت داخله صورة لطفلة ذات أعوام سبعة، يقف هو وامرأة بجانبها، أخذتها ومسحت الغبار الذي يغطي سطحها، نظرت إليه وكأنني أرغب في سؤاله.. أخبرني قبل أن أنطق بكلمة قائلا: (هذه ابنتي، كنت أراها تحلّق في السماء بدلا عن الفراشة،

كلما حاولت الإمساك بها، هربت بعيدا عني.. أخاف أن تفقدني ابنتي.. لقد رأيت شبحا يخيّم فوق صدري، وإني أخاله شبح الموت).. نقلناه إلى المشفى الميداني، ثم سمعت إنه انتقل إلى المدينة؛ لخطورة حالته، ولا أدري لليوم ماذا حلّ به، وبابنته.

إني أرى روحي تحلق في الأفق تماما كالفراشات الراقصة منذ أن اختفيت أيها المحب.. كنت أراك، ألمسك بيديّ، أتماوج معك، وأغني معك لحن الحياة.. كانت حياتي لك.. لكنك ذهبت، وأخذت معك الحياة، أبقيت لي الموت فقط، أراه كل يوم يقترب مني، ولأنني لا أخافه؛ فهو يظلّ بعيدا عني.

عزيزي.. إني في شوق أن تكتب ردّا على رسائلي.. أصافحك من صميم قلبي المحطم، وأتمنى لك سائر ضروب البهجة".

عندما أنهيت قراءة الرسالة، طويتها بحذر؛ خوفا من أن تتلف أليافها الورقية، وأرجعتها إلى الحقيبة، ثم أغلقت قفلها النحاسي بتوتر.. كنت أراجع - لمرات عديدة - حديثه الذي ألتهم فكري. أمسكت بحجارة صغيرة كانت ملقاة على سطح صفيحة الصخرة الكبيرة التي أنا فوقها، ورميت بها وسط البحر بقوة، فاصطدمت بالصخور المتناثرة داخله وقد سمعت صوت

opeikanda.com

الاصطدام رغم هيجان الأمواج في الداخل، وخلته سيحدث نارا كالتي أحدثها "أوشهنج"(٥) عندما رمى الحية فأصاب صخور الجبل.. لقد أشعلت كلمات الكهل نارا أقوى منها في صدري. لقد علمني حكمة مفادها: (حب الوطن لا تظهره التضحية فقط؛ وإنما يكون أيضا بالعيش المتوازي مع كل عناصره).

---

(٥) جاء في الملحمة الفارسية "الشاهنامه" للفردوسي أن أصل انبثاق النار حدث عن طريق حجارة ألقى بها "أوشهنج" حفيد الملك جيومرت ليقتل حية فاصطدمت الحجارة بصخور الجبل وتوهجت شعلة فكانت النار.

opeikandi.com

(8)

- لماذا نتحدث عن المواقف الساخنة في الحرب؟ وعن نتائجها الباقية؟ فذكراها تثير مخاوفَ كثيرةً في ساعات الحركة الديناميكية لأجساد ضحايا القتال في ميادين الحروب؛ إذ كان منهم من منحه القدر إضافة، لبندول العمر المفروض... هناك في ساحات المواجهة، تساقطت أزهار ربيع الحياة لأعمار الشباب المتطوعين، وهم يُرغمون - بالفطرة - للدخول إلى خريف الحرب.. إن تلك الذكريات تمضي بوداعة حينا، كطائر حلّق بعيدا في السماء، تاركا ظله أسفل الشجرة التي بُنيّ عليها عشّه، وتعود بقسوة في الحين الآخر، وكأن ذات الطائر رجع لمسكنه ومعه ظل جديد مع ظله الأول.

انسابت هذه الكلمات بعنفوان عبر جوانح الكهل، وأنا أستمع إلى ذكرياته المتجددة ذات صباح ساطع وباهت بعناصر الطبيعية الموجودة في البقعة الجغرافية المحيطة بنا، والملتهبة بأضواء الشمس الحارقة.. كنت أجلس معه في ظلال خفيفة قرب جدران أحد عنابر المصحّة، لا وجود لنسمات هوائية في المكان، فقط السخونة اجتاحت الظل.. احتسينا القهوة السيئة – الجاهزة - التي تباع في معظم مقاهي المدينة.. كان لسانه لا يتوقف عن الكلام، ربما هو أحب ذلك النوع من "الحكي".. ارتشف الحزن مع فنجان قهوته، واستأنف حديثه بأن وجّه إليّ سؤالا:

– هل تعرف معنىً حقيقيا للرحمة؟

لم أتمكن من الرد؛ لأنني لم أفكر يوما، كيف تُمنح الرحمة! ومع سكوني الطويل، تمتم بهدوء:

– ليست الرحمة صفة يمتلكها الله وأنبياؤه فقط.. هي هبة تُميّز بعضا من البشر، عن البعض الآخر، لقد نفخ الله مع روحه كل صفاته الجميلة في نفوسهم، علّهم يهتدون خلالها إلى الكفّة الصالحة لطريقي الإلوهية المختلفين.

ظللت صامتا، فأردف:

– سأسرد عليك مثالا للرحمة، التي قلما رأيتها أثناء اندماجنا في الحرب... عندما برزت السماء خلف غيوم متلبدة، اختلط لونها بحمرة الشمس الغائبة وسواد الليل المُقبل..كاد القمر خلال ذلك الفضاء القاتم يصرخ استجداءً للخروج بين انقباضات الغيوم. صار تقدمنا فاضحا بالانتصار آنذاك، وقد عجز العدو عن صد هجماتنا الأخيرة، لقد تحصّلنا على إمدادات عسكرية أضافت دعما قويا لجيوشنا الصغيرة. في تلك الليلة كنا نتسابق مع انسدال ستار الليل، لنصل إلى القرية النائية في أطراف الجبل.. لطالما رأيت مثل هذه الكآبة التي تنتشر في الأماكن التي نصل إليها بعد تحريرها من قبل العدو، جدران البيوت تفقد نضارتها الأولى، والأبنية الحكومية الأخرى تملؤها وحشة واضحة. فالعدو، ونحن أيضا نستبيح اغتصابها، هم يرون أنها ملكهم؛ فيحاولون الاستفادة منها بأي شكل، ونحن ندمرها؛ لأننا نراها أيضا ملكهم، ولا نريد لهم تلك الاستفادة. عند مدخل القرية كنا قد انغمسنا في سواد الليل تماما، توقفنا كالعادة عند الأطراف..

obeikandl.com

توقفنا وترجّل الرجال من العربات، انتشر بعضهم في أماكن قريبة، نزل الآمر من سيارته الضخمة المصفحة، كان هندامه أنيقاً نظيفاً وحذاؤه لا يزال بلمعانه.. وقف بمتانة أمام السيارة، أدخل يده اليسرى في الجيب الأمامي للقميص، وأخرج علبة السجائر، التقط واحدة ونظر إليّ، أشار إليّ بأخذها، اقتربت منه، فأخذتُها وأشعلتها.. أخرج الأخرى من العلبة ووضعها بين شفتيه، وأشعلها أيضا.. دنا نحوي بهدوء، وقال بحزم بعد أن نفث هواء سيجارته بقوة: "لقد تجاوزنا الكثير في هذه الحرب، أكاد أجزم بأن ساعة النصر اقتربت... آهٍ يا صديقي..كم سأشتاق لرائحة البارود عندما تنتهي هذه المسألة اللعينة.. كم سأحنّ إلى الأصوات الصادمة لكل أنواع السلاح الذي نستخدمه نحن والعدو، حين نحقق النصر أو تلحقنا الهزيمة.. إنني أعشق هذه الحرب وأكرهها.. لا أعرف سبب ذلك الحب! لكنني بالطبع أعرف أسباب الكره.. القهر الذي تولّد داخلنا مع كره العدو، أراه ينمو مع كل خطوة نتقدم فيها نحوه".. صمت لوهلة وأخذ نفسا عميقا من دخان سيجارته، ثم أضاف سؤالا فجائيا: "هل تعتقد أننا سنحقق النصر؟". أجبته بأسلوب خشن لا يعكس إلا التزام عسكري تجاهه، وتجاه الوطن، بأهدافنا التي نلتمس تحقيقها: "بالطبع يا سيدي.. لقد تجاوزنا نصف أصقاع الأرض التي يسيطر عليها العدو، وأكاد أرى جيشنا يرفع رايات النصر في البقاع الأخرى عما قريب". تنهد هو وأضاف: "أنا لا أتحدث عن تحرير الأرض كما تخمّن أنت، إنما أحدثك عن انتصار الإنسانية، هل سنحقق أهدافها، بهذا النصر؟"

كانت إجابتي.. عدم معرفتي، ظهرت عليه بإيماءة من ملامح وجهي، كان سؤاله صادما بالنسبة لي، الآن صارت الأمور تتعرى أمامي.. لقد

تنبهت بهذه الكلمات إلى حقائق عظمى.. أحاطت بذهني خيوط مفزعة لأفكار موحشة في تلك الأثناء، سرحت وظللت أتذكر ابني.. هو ككل الأبناء الآخرين، ماذا سيحمل لهم المستقبل؟ لا أظن أن هذه الحرب ستحقق لهم تغيّرا في حاضرهم، بالنصر أو بالهزيمة. مزّق الآمر تلك الخيوط بأن قال مجددا: "أترى هؤلاء الجنود؟.. إنني أرى الفرحة في محيّاهم، فأيام النصر تنكشف أمامهم شيئا فشيئا، سيفرحون كثيرا، عندما نمتلكه.. لكن بعد مضيّهم بعبور المستقبل القريب، سيستبدلون أفراحهم بأحزان موجعة"... تعثرت الكلمات في حنجرته للحظة، ثم عادت تتحرك من جديد: "مع نهاية الحرب تبدأ التعاسة، لن يكون للحرب نهاية، سيكون لها بدايات أخرى".

أحيانا أشعر بأن الآمر يملك من الحكمة، القدر الوفير.. لم يكن رجلا عسكريا يقاتل من أجل الحرب فقط، هو مختلف تماما؛ لأنه لم يؤمن بما كنا نؤمن به نحن، فجميعنا يعتقد بأنه عندما يُدمّر عدونا، فلن يبقى قتلة على الأرض!..

أنهى حديثه معي عند انتهائه من سيجارته، رماها بالأرض! ومشى صوب الجنود، كان يأمرهم بالالتزام في أماكنهم، ويوزّع الأدوار على كل قادة الفرق.. بعض الجنود بدأوا في تجهيز الأكل الذي مللنا تكرار صنوفه.. رأيت أحد الرجال - ممن ذهبوا لرؤية القرية - يقترب من الآمر ويهمس له، لاحظت مع حركة شفاهه تغيّرا واضحا في ملامح الآمر، التي أصابتها حدة وغضب، التفت إليّ من بعيد، وطلب مني الحضور.. وحين اقتربت، أمرني بأن أجمع ثلاثين

رجلا بعشر عربات محمّلة بأسلحة ثقيلة، وخمس عربات أخرى صغيرة، لترافقه إلى داخل القرية.. سبقتنا سيارته التي ركب فيها مع طاقم حراسته، وذلك الرجل الذي حدّثه منذ قليل، فانطلقنا خلفه... عند عبورنا منتصف البيوت، توقفت عربته قرب باب منزل صغير يغطي الخشب جزءا كبيرا من واجهته، وبجانبه فضاء يحيطه سور قصير يبدو كأنه مسكن لإحدى أنواع الحيوانات أو الطيور.. أحاطت عرباتنا بالمنزل.. نزلت مع أحد رجالي من العربة، واقتربت من سيارة الآمر، وجدته يأمر الحارس بأن يطرق الباب ويستأذن أهله بالدخول ويخبرهم بأن الآمر يرغب في زيارتهم.. لم أكن أعلم لماذا أتينا.. ولا استطيع السؤال.. انتظرنا الحارس.. فرجع بعد قليل وأخبرنا، بأنه يمكننا الدخول.. ترجّل الآمر، وأمر بأن يرافقه للداخل أربعة جنود وأنا فقط.. أما البقية، فقط ظلوا قريبين منا يحرسون محيط المكان خارجاً..

عندما وصلنا للباب الخشبي الضخم والقديم، الذي يدل ملمسه الخارجي على بقائه معلقا في مدخل المنزل لمدة طويلة مضت. طرقه سيدي الآمر بلطف؛ ربما خوفا من سقوطه.. كان يحيط جانبيه الحارسان الشخصيان، كنت أقف أنا خلفه، وورائي الحارسان الآخران.. أحد حارسيه طرق الباب مرة أخرى، لا أحد يرد.. انتظرنا قليلا.. لا أحد يفتح.. ثم ضربه بقوة، فسمعنا صوتا نسائيا يقترب منا، انسحب أحد مصراعي الباب بحذر للداخل، وظهرت امرأة مسنّة، ملامحها غير واضحة.. كانت الإضاءة الصفراء الخافتة التي تغطي أرجاء المنزل، تخفي جزءا كبيرا من وجهها، بعد برهة ظهرت تقاسيمه المليئة بشحوب الصحراء، تراءت أمامي عيناها، كان القلق يحوطهما بشدة، وتباين فيهما خوف أشبه بخوف طفل ضل عن أمه.. حيّاها

obeikandl.com

الآمر بلباقة، عندما رأى الفزع يحتويها، وقال لها: "هل تسمحين لي بالدخول؟ أريد التزوّد بالماء أنا والرجال". وافقت العجوز على أن ندخل، لم يكن في وسعها الرفض، بالتأكيد ستُتهم بالخيانة إذا رفضت! دخلنا فوجدنا معها فتاتين صغيرتين، خائفتين، تمسكتا بطرف قميصها..كنت حذرا في إلقاء التحية عليها، حاولت جاهدا أن أتلفظ بأحسن الكلمات، فلقد أحسست بالخوف يهز بدنها، لم أعرف ماذا أصابها، هل ظنت أننا الأعداء؟ لا أعتقد.. ثم إنني لا أعلم كيف ترى العدو، ربما نكون نحن في نظرها أعداءً.. لطالما لا يعي الإنسان –بجهله - كيف يكون العدو، ولا يستطيع - بجهله أيضا - أن يميّز بينه وبين الصديق!.. الرجال الأربعة الذين دخلوا معنا، كانوا قساة اجتماعيا، لم يعرفوا يوما كيف يكون اللين في هذه المواقف، دخلوا بأحذيتهم فوق سجاد المنزل، شهروا سلاحهم، وقفوا بحدة حول الآمر، صافحها هو بابتسامة وتحدث إليها ببضع جمل رقيقة؛ كي تسكن وتزيل الخوف عن كاهلها.. وإني لأذكر بعضا من كلامه: "لا تقلقي.. نحن لسنا أعداءً، جئنا هنا لنساعدكم، وقد تحررت قريتكم من بطش العدو.. لا تخافي فنحن لا نمسُّ إلا الجنود، ولا نسرق، أو نعتدي على أحد.. إننا نأسف لاقتحامنا وحدتك... أين زوجك؟"..

صمتت العجوز وازداد الخوف مع صمتها، بدأت إحدى الفتاتين بالبكاء، والأخرى صامتة لكنها ترتعش رعبا.. أردف الآمر: "هل لديك أبناء غير هاتين الفتاتين؟".. كان سؤاله هذا هو المنقذ لسكوتها، قالت بتردد بعد أن تريّثت لحظات في إجابتها، وهي توجه كامل نظرها نحوي: "إنه ابن واحد.. وهو مريض جدا". قلت لها: "هل يمكننا أن نراه؟ ربما نستطيع مساعدته". نظرت إليَّ بهلع

عبر عينيها السوداويتين، أمعنُ إليهما فلا تطرفان، الفاجعة غمرتهما.. تجهمت وتجهمت، كانت تريدني أن أصمت، حاولت أن تجعلني أقنعهم بالرحيل، إنها تخاف منا، وتكاد الدموع تذرف من عينيها، أحسست بكل ما أرادت قوله لي.. عرفت أنه علينا أن نغادر المكان.. هناك شيء ما يربطنا بمخاوفها، أخذت تشد الفتاتين نحوها بقوة وكأنها تخاف أن نأخذهما معنا، اقتربت من الآمر وقلت له بصوت لا يكاد يسمعه غيرنا: "سأدخل لأراه أنا، وسأحاول معرفة مرضه، أما أنتم ، فيجب أن تبعدوا السلاح عن مرأى العجوز وبناتها، وأرجو يا سيدي أن تأمرهم بالخروج..

رد عليّ بنفس نبرة الصوت: "أنت لا تعرف شيئا.. يجب ألا يغادر الرجال قبل التأكد من بعض الأمور".. أدرت بعينيَّ نحو العجوز، كانت ترتعش رعبا هذه المرة..حولتهما إلى الآمر وقلت: "أنا سأبحث عن تساؤلاتكم يا سيدي.. أمنحني ثقتك وسأعرف ما تريدونه" هزّ رأسه موافقا، وأخبرني بأن عليَّ معرفة صلة سكان هذا المنزل بتحركات العدو قبل دخولنا.. فقد علمنا من بعض أهالي القرية، بدخول أفراد من العدو إلى هنا.. تكلمنا أنا وهو لفترة ليست قصيرة، حدثني عن مخاوفه، وأيضا عن حرصه في أخذ كل سُبل الحيطة، أذكر آخر كلماته في حديثنا: "لا تؤمن لأي أحد.. هذه المرأة الضعيفة قد تخبئ معها أسرار العدو بالكامل.. إنها الحرب، لا تأخذك العاطفة بأحد، عليك أن تزيح عن صدرك كل الأحاسيس النبيلة، على الأقل حتى تحقق النصر".

رددت عليه بصوت عالٍ - دون أن أفكر في نصيحته – كي تسمعني العجوز وتطمئن، حسنا انتظروني خارجا، حتى أنهي فحص المريض، و أملأ زجاجتنا بالماء... وحيث إنني قد تعلمت أصول مهنة طب الحروب فيما سبق، مع اختصاصاتي الأخرى في الجيش، فقد وافق الآمر على أن أفحص المريض.. هذه الاختصاصات الكثيرة التي جعلت الجنود يذهلون من مهاراتي، ومع تعاطفي الشديد لهم واهتمامي المبالغ بكل شؤونهم جعلتهم يطلقون عليّ لقب "الجد المحارب" رغم عدم تقدمي في العمر كثيرا آنذاك.

تزايد نحيب الفتاة، وأجفلت خلف العجوز، فأمسكتها بيديها وهزتها لتسكتها، حضنتها بقوة، أخذت تهزها أكثر، كانت تداعبها، ونسيّت للحظات أننا قربها.. كنت أنظر إليها بدهشة، أصغيت جيدا لنغم كلماتها التي تلقيها على الفتاة، لقد أحسست بشيء غريب ملأ صدري، شيء أكبر من أن تصفه كلمات، وأكبر من أحداث الحرب المميتة التي شاهدتها، وأعمق من فكرة الموت، إنه شيء أشبه بصراعات الحياة التي يعيشها الفرد منذ أن تتنفس رئتاه وحتى نهاية توقفها.

خرج الآمر ومعه الحراس. قبل خروجهم ألصق شفتيه بأذني، وأمرني قائلا بصوت خافت: "عليك أن تفتش المنزل جيدا، ويجب أن تعرف منها إذا ما كانت معنا أو إنها تخوننا بمساعدة العدو، إننا سنستريح ثلاثة أيام في هذه القرية، ويهمّنا التأكد من سيطرتنا على زمام الأمور فيها.. سننتظرك في الخارج، والجنود سيظلون محيطين بالمنزل، لحين إشارة منك".

openkanali.com

دخلت معها إلى الغرفة لأرى ابنها، بعد أن هدأت ابنتها الباكية، والأخرى لا تزال خائفة. حين رأيته وهو ملقًى على الفراش صرعت من هول الفاجعة.. كان آمرا عسكريا بأحد سرايا العدو التي تصدّت لدخولنا إلى هذه القرية، إنني أعرف ملامحه، كان أشد الرجال شراسة، الآن هو جريح، جسده ينزف من جهات عدة، لا يكاد ينظر إليّ، ربما كان فاقدا للوعي، وكنت أجزم بذلك لولا الآهات العنيفة التي يخرجها، وهو مغمض العينين.. لم أتمالك نفسي عندما رأيته، رفعت البندقية وأردت التصويب نحو رأسه، تنبهت المرأة لحركتي السريعة، فرمت بنفسها أمام السلاح، وصرخت: "أرجوك لا تقتله، حياة ابني رهن بحياته...".

حكت لي العجوز كيف أن أفرادا من العدو اقتحموا منزلها، وأسروا ابنها مقابل أن تأوي آمرهم وتشرف على علاجه، فقد كان صعبا عليهم نقله وهو بهذه الحالة، وهددوها بقتل الابن لو علم أحد بوجود الجريح معها.

كل شيء قد يحدث في الحرب.. لوهلة فكرت، وأنزلت السلاح.. نظرت إلى الجريح، وإلى المرأة وابنتيها، طافت عيناي أرجاء الغرفة المعتمة التي نقف داخلها، قلت لنفسي: "هذه ليست ميدانا للقتال، إنها جزء من بيت، كالبيوت التي نقطنها، وأهله أناس منا، وهذا الغريب بالنسبة إليها ضيف ثقيل أُرغمت على تحمّله.. كان عقلي في صراع مع جسدي، كان الأول يلقنه إشارات خاطفة ليحولها إلى حركات سريعة تنعكس على أصابعي: كي أفتح مسمار الأمان بالبندقية، وأضغط على الزناد، وأنهي هذا الثقل النفسي على عاتقي.. لكنني تمهلت، كانت يداي تترددان عن أيما حركة، لم أفكر إلا في خداعي للآمر،

وخداعي للجنود.. فكرة الخداع نمت وكبرت في ذهني وخمنت: هل سأخون الوطن أيضا؟ هل سأخون كل الأرواح التي اقتصّها العدو.. وهو بكامله يتمثل أمامي الآن في صورة هذا الآمر الجريح؟.. خرجت دون أن أفعل شيئا، والإجابات، لم تجد إليّ سبيلا.. أذكر أنني لم أتحدث مع العجوز كثيرا، رغم أنها حدثتني طويلا.. كانت خطواتي من الغرفة إلى الصالة ومنها إلى الباب مثقلة بالهموم، لقد استغرقت وقتا لأعبرها. شرعت أخمن: "ماذا عليّ أن أقرر؟.. لم يخطر ببالي سوى أن أرجع إليه، و"برشّات" قليلة أنهي حياته. أأصبحتُ متعطشا للدماء، كبقية الجنود؟".

كنت أفكر بشدة:"ألم نخرج من ديارنا ونترك وراء ظهورنا أبناءنا وزوجاتنا، لنواجه العدو ونتشفى منه ونمحو آثاره؟.. ماذا سأخبر الآمر؟ وما الذي سيحدث إذا قتلته؟ بالطبع سيصفقون لشجاعتي.. ليست هذه بالطبع الفائدة التي أبحث عنها.. هناك أمر آخر، ربما سينقص عدد العدو واحدا، إذ فعلت". أشرت برأسي ناحية الباب واندفع جسدي منهكا خارج المنزل، وكأنني قد صارعت الجريح لساعات طويلة وهزمني!.. لقد هزمني حقا، بدا كل شيء فيّ ضعيفا، حتى الدماء خلتها توقفت عن الجريان في عروقي، أطراف جسدي تراخت، عضلات قلبي بدأت في الانكماش وكادت توقف نبضاته.. أصغى سيدي الآمر إلى قصة قد اختلقتها زيفا عن المرأة وابنها المريض، لقد صدّق كل الحكاية، أو ربما تصنّع التصديق، هو يعرف أن الخيانة لا يلحقها إلا الموت.. لا وساطة بينها وبينه؛ لذا لم يجادلني كثيرا، قرر أن ينهي شكوكه تجاهي بأن صدّق كل شيء نقلته له!.. تحدثت معه كثيرا، ثم انطلقنا بعيدا عن المنزل.. تركت كل همومي هناك مع العجوز، كنت أفكر كيف ستهتم به، وإذا قبض

openkanari.com

ملك الموت روحه، هل سيرجع ابنها إليها؟.. اختفى المنزل عن ناظري، وكل شيء يحيطه هناك، حين ابتعدت العربة عن المكان. تمنيت أن يرحل المنزل بعيدا، ونبقى نحن وحدنا في هذه القرية، دون أن يكون للعدو أيما أثر...

تأهب الكهل للخروج بعد إنهاء قصته، أو أنه لم ينهها. بدأت الشمس تسطع بشدة، وكأنها تريدنا أن نترك المكان الذي فيه جلسنا، حرارتها لفحت جسدينا بالكامل.. وقف عن الكرسي، وتكسّل بيديه، ثم بسائر أطرافه، تحرك بعيدا عني، ثم رجع نحوي، وقال لي قبل مغادرته:

العلل المختلفة لابتكار مبدأ الإنسانية واحترام الآدمية، أراها غير منطقية.. لا أعرف لماذا ترتبط كلمة "الإنسانية" بالأعمال الخيّرة والنبل غير الموجود؟ ليس للإنسانية أي خير! ابتكار الحروب أسوأ ما أنتجه البشر، سيدفع لعنته حتى يخرج آخرهم من هذه الحياة.

obeikandl.com

(9)

باتت لقاءاتي بالكهل، لقاءات عابرة، فقد رغبت في الابتعاد عنه، وظللت رغم هجرانه - فترات طويلة- استمع إلى صدى الكلمات التي ردّدها على مسامعي في آخر زياراتي له، إذ لم تكن الأخيرة. جولاته في الحرب، التي كان يوجز عليّ حكاياتها، تذعن بقوة في مخيلتي، كل حرف منها أحاول أن أخفيه أمام رعبي المتنامي، تجاه تلك الذكريات القاتلة.

كانت تلك الزيارة طويلة جدا، الزمن خلال حديثنا كان يتراجع ببطء نحو الخلف البعيد.. قصته عرجت على قلبي في مواضع رقيقة؛ لذا لم أحبذها؛ ولهذا لازلت أتذكر تفاصيلها.

بدأ سرده ذلك اليوم باهتمام، كان يصف لي إحدى الرحلات الهجومية الليلية التي أُرغم على دخولها إبان الحرب، فقال:

– في إحدى الليالي، المظلمة، التي يختلط فيها سوادها برعشة المساء الحزينة، أمرنا بالتقدم - هجوما - على مقرات العدو، فسرنا بعرباتنا الصغيرة نحو الهدف الذي نمقته، كل الرجال أرادوا أن يتخلصوا من عدونا، وإنهاء آخر أعدادهم.. أكثرهم أراد ذلك؛كي ينهي عذاباته، ويرجع إذا منحت له الحياة؛ ليعيش بقيتها مع أسرته براحة وسكينة، كل الرجال أمسوا يحلمون باستعادة بيوتهم. كم صارت أذهاننا ترتاح بفتور، من كثرة التعب الذي تلقاه

أجسادنا.. ولعل القتل الذي نرتكبه، هو سبب راحتها... لطالما يظن المرء أن تحقيق الرذائل يكون سببا مهما في بلوغ الراحة.

أضاء جنح الليل بنور خافت، أطل علينا من السماء، ثم بدأت تجذب إليها أضوائه عندما افترشت فسحتها غيوم كثيفة.. كانت الأوامر جدية تلك الليلة، لقد صلّى الجنود قبل التقدم، ومنهم من احتسى الخمر، آخرون لم يفعلوا أيّا من الاثنين.. في الجبهة ترى اختلاف الأنفس والأخلاق. انتظرنا عتمة المساء، ثم انطلقنا، كان كل شيء حول المكان الذي نسير فيه صامتا وأخرس، الأرض التي ندوسها لا تتألم، والأزهار التي نحطمها لا تتوجع، الأعشاب وبقايا النباتات التي نجرّها مع أحذيتنا لا تصرخ، الأشجار يسلبها نوم هادئ ونحن نمر بينها، لنعبر إلى ضفة العدو، فلا تتنفس، كل المكونات المحيطة بنا لا تعير اهتمامها لنا، ربما تريد أن تقف في كفة الحياد بيننا وبينهم، أو ربما تكون غاضبة منا!. كنت أسير في منتصف الفرق المنتشرة في البقعة القريبة من عدونا، الآمر ومعه الحراس والفرقة الخاصة كانا أمامي، نتفرق في نقاط عدة، ثم نعود لنلتقي من جديد. مشى معظم الجنود شاردي الذهن دون أن يتحسسوا مواضع خطواتهم، كانوا يتعثرون في مشيتهم، ولا تفقد تلك الخطوات إيقاعها العسكري.

في مثل هذه اللحظات - وما هي بلحظات، إنها ساعات مريرة، قد يصل التقدير الزمني لكل واحدة منها إلى آلاف السنين مما يُحتسب في حياة الإنسان - تنفصل الأجساد تماما عن العقول، والعاطفة تنفصل عن القلوب..

كل التقديرات الثنائية في الجسم البشري تنفصلان عن بعضهما، ولا تبقى فيه من مشاعر سوى فكرة الوصول إلى النجاة بالانتصار، والفوز بتذكرة مرور اجتياز النصف الآخر من الحياة.

أذكر أيضا تماما الوصف الحي، والمؤلم الذي ردّده الكهل عليّ عند لحظة هجومهم:

– كم من الأسفار قمنا بها أثناء ترحالنا - غير المنتهي - إلى النصر، وكم من البقاع التي تبعثرت فيها أجسادنا للقبض على رقاب العدو، لكنها لم تكن شبيهة بهذا التنقل، كان الأهم لدينا على الإطلاق.. طاعة عمياء كانت تحركهم تجاهه، الطاعة واجبة في مثل هذه الهجمات، لكنهم لم ينظروا إليها على أنها واجب عسكري، كانت فكرة أخرى تقودهم إلى الهجوم، والزحف نحو العدو ودحره حتى آخر جندي فيه، وآخر عربة يملكها. الفكرة بدأت تحمل معها قضية أكبر من تلك الأطماع: "كل شيء يمتلكه العدو سوف يصبح ملكهم، بحجة الانتصار للوطن.. كل أرض مشت أقدام العدو فوقها، ستنظم إلى الأرض التي يمشون هم فوقها، بعدما يحققون النصر الذي يرونه قريب!". خليقة البشر تسعى لينل كل الأشياء، التي لها وأيضا التي ليست لها.. هناك قوى كامنة وأخرى غير متوقعة تجذبهم إلى خوض هذا الهجوم، الذي يظنون أنه القتال الأخير.

وقفات الكهل كانت قليلة وخاطفة، أتذكر بعض الكلمات التي حدثني بها في اهتمام عن أحداث تلك الهجمات فقال:

obeikandl.com

– تبسط الرياح شهوتها بصفير حاد ذلك المساء، وكأنه صوت أبواق النفير! كنا نسير في خطى متساوية، جميعنا يتقارب من بعضه البعض بلا صدام.. وما لبث أن مضت دقائق قصيرة، حتى تشوش النظام في مرأى أعيننا نحن الموجودون بالخلف، بدأت الفوضى تعم تقدم الرجال نحو العدو، لقد منحهم الآمر شرف الوصول إلى الخصم أولا.. أغلبهم كان فرحا بذلك الشرف!.. الأغبياء، لم يعرفوا أن الأمور الانتحارية لا تؤخذ هكذا. ليست الشجاعة في الإسراع والتهور، إنها الحكمة والتريّث.. لقد رأيت الجنود يتقدمون والقادة يتراجعون، ومنهم من يثبت في مكانه دون حراك، ينظرون إلى حركة "البيادق" أمامهم وهم يسيرون بانفعال نحو العدو. كنت أنظر إلي البقعة أمامي وكأنها رقعة الشطرنج.. هكذا قانون الحروب، يُزج بالبيادق إلى الأمام أولا؛ كي يقاتلوا ويضعفوا العدو، ثم يأتي بعدهم دور القادة وأتباعهم.. أحيانا أفكر أن القتال يكون من أجل الشخص الواحد، كفكرة الاقتتال في تلك اللعبة، فقط تكون النجاة مرتبطة بنجاة الملك، فلو مات هو خسرت الرقعة بالكامل!..

انطفأ جنح الليل المضيء مع تقدمنا، ظلت أجسادنا تقترب منهم، العربات كانت تتبعنا في الخلف.. لقد بدأنا نرى خيالاتهم، إنهم كثر.. انتشرنا حول المكان الذي انتشروا فيه، بعضهم تنبأ إلى قدومنا، لكن بعد فوات الأوان.. اكتشافهم لنا جاء بعد أن طوقناهم تماما.. لقد بدأ قائد الفرقة الأمامية بنداء تحذيري لهم، أطلق بضع كلمات بصوته الحاد وأخذ يصرخ: "استسلموا.. استسلموا.. كلكم محاصرون بالكامل.. لن تستطيعوا الإفلات، أو المقاومة.. إننا لا نريد قتلكم.. استسلموا...". ورغم عددهم الكبير الذي

يفوق أعدادنا بالأضعاف؛ إلا أننا كنا مستعدين لإطلاق مدافعنا ورشاشاتنا، وقنابلنا.. وخيّل إليّ أنهم لن يستطيعوا الإفلات، حتى وإن كانوا طيورا. صوت القائد يزداد ولعا وحنقا: "استسلموا.. هذا تحذير أخير.. استسلموا وإلا بدأنا في قصفكم". هم لم يردوا عليه بالأصوات أو برايات الاستسلام، لقد كان ردهم عنيفا، بدأ رجال العدو بالقصف، المدفعيات الصغيرة التي لا تحتاج إلى إعداد مُسبق أخذت تزمجر من بعيد.. القائد أعطى إشارة بالإطلاق، كل الأصابع لأيدي رجالنا ضغطت على زند أسلحتها بكامل قواها، تهاوت قذائفنا ورشاشات البنادق والقنابل عليهم، حتى الشتائم قذفها رجالنا نحوهم.. كل الحمامات النائمة، والعصافير وباقي الحيوانات والحشرات حاولت الهروب من ساحة المعركة، اندفعت مع هجومنا ريح متوحشة من بين الأشجار، وجعلت أوراقها تئن وترتجف. هم يطلقون ما يستطيعون إطلاقه، فلا يصيبون إلا أهدافا قليلة من عرباتنا ورجالنا، ونحن نطلق بسهولة نحوهم فنصيب أهدافا كثيرة من عرباتهم ورجالهم.. وابل صواريخ مدفعياتنا أُنزل على رؤوسهم بشراسة، سقط رجالهم على التوالي مع كل إطلاقه نرمي بها نحوهم.. كنت أرى الجثث تتهاوى من ناحيتهم.. هكذا الحرب عندما تشتد، كل شيء فيها يصرخ، تسمعها تنادي وتقول: "هل من مزيد؟!".. المكان تحول إلى جحيم دنيوي.. مع كل جثة تسقط أمامي تأخذني الفرحة! هم يصرخون ويبكون، وأنا ورفاقي نبتسم ونضحك.. قريبا سينتهي العدو، وإذا كان هناك غيرهم، فسيقل عددهم كثيرا. كنا نتمركز في أماكن مناسبة للاختباء، وهم عراة أمامنا، الحظ جعلهم لا يتنبهون إلى قدومنا؛ لذلك فقد كان علينا التصديق بأننا سننتصر.. كنا نحقق النصر، لكننا نفقد في كل لحظة أرواحا

openkamar.com

وأجسادا من جنودنا، لكن هذا ليس بمهم! لأننا مع كل "بيدق" نفقده، هم يفقدون "قلاعا" و"أحصنة" و"فيلة"...

انهمرت الرصاص من البنادق، وانطلقت القذائف من المدفعيات، ومع تلك السقطات التي أراها من بعيد قربهم تحوّلت أصوات الرصاصات والقذائف مع تساقط الجثث وصراخ أصحابها إلى سيمفونية مرعبة، معزوفة ليست من صنع موسيقار مبدع، إنها موسيقا الحروب.. كنت أشفق على من لم يتمكن من سماعها. ثمة إبداع فطري في هذه الحياة، إنه إبداع لا يبتدعه المبدعون ولن يستطيعوا خلقه، أو تعلمه!..

كنت أفكر في أولئك الأوغاد، وأشفق عليهم.. كان يجب عليهم تعلم فن الموت، قبل تعلم فن الحروب، فهم أمامي في تلك اللحظة يموتون بلا انتظام، وبشكل عشوائي يدعون الحياة.

اختلطت أفكار الكهل من الألم فصمت للحظات.. لقد رأيت ذلك الخلط والألم، فأردت أن أتدخل بسؤال، فاستأنف حديثه وأجلت أنا تساؤلاتي:

- كل شيء أتذكره بصعوبة، حينما أرغب في استرداده.. أحيانا أفكر ماذا سيحل بذكرياتنا؟ عندما يصارعها الدهر، ستكون أطيافها قد تلاشت،

obeikandl.com

وتصبح أحزانا يختلقها الحنين، فالذكرى كما وصفها "جيْد": هي (ابتداع الأسى) (٦).

ولأنه صمت بعد هذا الحديث لفترة، سألته:

- وماذا حلّ بكم بعد الهجوم؟ هل انتصرتم؟

أجاب، ثم سأل:

- لقد انتصرنا.. بالطبع انتصرنا.. ربما لأن إيماننا بالنصر يفوق إيمانهم به.. لكن عن أي نوع من النصر حققناه؟!

بعد هذا السؤال، الذي لم أستطع فهمه ولم أجب عنه، حيّاني ورحل عني ناظريّ بهدوء.

---

(٦) أندريه جيد.. رواية "إيزابيل".

obeikandi.com

(10)

رسائل الكهل الثلاث الجديدة.. كنت أقرأها الواحدة تلو الأخرى دون توقف، لقد مرّوقت طويل لم أتحدث إليه، شرعت ألتهم سطورها بعينيّ دون توقف، وانكب بحواسي على دراستها وتحليلها. لقد صارت عرى الصداقة تتوثق بيني وبين كتابته المرسلة، أخذت أهتم بها كأنها خاصتي:

الرسالة الأولى: (عن الحرب وكتابة مذكراتها)

"عزيزي.. بعد أن رحلت، ظللتُ أباشر كتابة مذكراتي عن الحرب، بدأتُ في صياغتها بأسلوب عسكري، كنت راغبا أن تعرف من خلالها ماذا يكون أبوك.. عرفت أنك لن تقرأها؛ إذا كتبتها عن الحرب، لكنني أردت أن أبيّن عما تحتويه نفسي أمامك، عبر الأوقات التي قضيتها أنا أثناء قتال الأعداء.. ثم تذكّرت أنك سئمت من كل ذكرياتها، أنت أيضا يمكنك الكتابة عنها، وعن آلامها. وأخيرا أدركت أنك ستمحو آثار الحرب عن ذهنك، أو تحاول مسحها من ذكراك، وأنك لن تهتم بأي تفاصيل تُكتب عنها.. عندها قررت ترك هذا الأمر.. واستهللت في إفراغ كل ما أرغب في نقله، بمعزل عن الجميع بما فيهم أنت.. أردت الكتابة عن الحرب، ولا شيء سواها.. أردت ملء الصفحات البيضاء التي امتلكها بكل تفاصيلها الرائعة – إن وجدت – والبشعة، ومواقفها الحزينة والمسيئة من قبل العدو، ومن قبلنا أيضا.. قصدت ذلك ؛ لأنني ما كنت لأسمح أبدا لأحد غيري بقراءتها. لقد هممت بتفريغ محتوى

الذكريات الأليمة التي ساقتها دروب الحرب.. ثمة سبب آخر جعلني لا أكتب عن نفسي من خلال الحرب؛ لأن فيها ستكتشف معنى فقد الإنسان لآدميته، إن هناك أسرارا قررت الاحتفاظ بها داخلي، ولا أعرف للآن سببا لسريّتها وخطورتها!.. حين عزمت كتابة كل الأحداث المهمة وغير المهمة في الحرب؛ بدأت بتسجيل كل الأمكنة والأزمنة التي شهدت قتالا عنيفا، وتعمدت أيضا ألّا أجعل من خطوطها صراعات عشتها بمفردي أو ذات علاقة وطيدة بشخصي، لقد دوّنت حياة الأفراد الذين أراهم، وأتعايش معهم.. حتى الموتى الذين يسقطون منا، كنت أتقصّى حول أفعالهم، الحسنة والسيئة.لم تكن تلك المذكرات التي أدونها بالنسبة إليّ مجرد ذكريات تربطها أماكن مؤرخة بساعات أحداث ومواقف؛ بل إنها تحمل معها كل التأملات والأحلام، لكل جنديٍّ سجّله تاريخ تلك الأوقات العصيبة. كنت دائما أقول بعد أن انتهت فترة القتال: (من الأفضل أن أحيا وحيدا).. لكن هيهات أن يستطيع من ذاق مرارة اقتلاع الرقاب، أن يعيش بمفرده بمنأى عن رعب الذكريات الدامية.. خفت في بعض الأحيان أن ترى تلك المذكرات، وتتفحصها، وتكشف فيها بعضا من بشاعة البشر عندما لا يكون لديهم هدف سوى القتل!.. وأيضا قلقت بسببها أن تعيد في ذهنك كل الآلام التي مررت بها أثناء تطوعك في الجيش...

سأنهي هذه الرسالة فورا؛ لأنني لا أعرف طريقا لنهاية الأشياء منذ أن كنت جنديّا، وحتى هذه اللحظة.. أتمنى أن تكون قد أصبت الأهداف التي خرجت من أجلها ورميت بجسدك دون تردد وسط نيران العدو لنيلها.. أصبو لرؤيتك قريبا".

الرسالة الثانية: (تاريخ البشر الزائف)

"عزيزي.. يأخذني فضولُ شجنٍ نحو تاريخ البشر، وكذلك حاضرهم ومستقبلهم، لقد كللت من التعب النفسي حول كل شيء تحتويه أزمنتهم الثلاثة.. وقد أثملني الحرمان وأسكرني البحث عن همومهم، تماما كما يُثمل ويُسكر النبيذ الرؤوس الفارغة.. العاطفة تأسرني تجاه حياتنا الجوفاء، دائما أتساءل كم من العاطفة تسكن أجسادنا؟ وكم من الأفكار التي تلتهمنا نحو فهم الحياة؟.. وأحيانا أفكر: (إن العاطفة لا تُمنح للجميع، إنها تهب الأقوياء ضعفا تجاه المستضعفين؛ لذا فالواجب انتزاعها ونسيانها).

إن معظم الناس لا يولون أنفسهم إلا مشاغل مبتذلة، وتمر أعمارهم بسذاجة في تمضية ساعاتهم البطيئة! إن أحلامهم ليست بأحلام، كما يظنون.. إنها تكوّر نواياهم في شكل حلقة مفرغة تعيد تكرار أفعال أسلافهم السابقين. كل الأحداث التي يدوّنها التاريخ هي كذبات صريحة، تعطي نفسها لقبا زائفا خلال أحلام الجماعات البشرية.. وتبقي جلها في نهاية الأمر كمصدر وحيد للبشرية جمعاء، وتخبو ذكراها بجلاء فاضح ومزود بالألاعيب المبتدعة، لكن مستقبلها يظل مجهولا ومخيفا ، تماما كفكرة تجسّد الجحيم في عقول أولئك البشر.

تاريخ البشرية هو نتاج الإثم الغريزي لهم، غير أن فكرة الإثم لا تحتمل التأريخ؛ لذا يتم اقتلاعها، وتمحوها كل عاطفة تلحق بها.. إن الخطايا البشرية تنشأ بارتقاء الخليقة، ومع اتساع غموضها تذوب تلك الخطايا، وتصبح هي والسكينة الإلهية المحركين الأساسيين لحياة الناس.

إنني أشعر بالغثيان كلما تذكّرتُ العاقبة في استمرار الخطايا، لقد صرنا نشتاق للنبل الغائب، وظللنا طريق الخير.. منذ أن غادرتنا السعادة بات طريق عيشنا مسدودا بالآثام...

أيها العزيز أصبحت لا أحب الإطالة في الكتابة. أتمنى لك دروبا زاهية".

openkandil.com

الرسالة الثالثة: (عن البهجة الأبدية)

"عزيزي.. إن بلوغ الفرحة أمر نسبي، ولأننا أوشكنا على فقدانها تماما، فإن مقدرتنا على تحمّل ما يطلق عليه بتسمية (السعادة) ضعفت، وصارت جل صفاتنا تعيسة. هل تعرف لمن تظهر البهجة؟ إنها في أيدي الأقوياء فقط، وهي نسبية لهؤلاء، أما البهجة الكبرى فهي ميزة لا يمتلكها أهل الأرض.. ربما في السماء يكون مكانها الصحيح! نيلها بالكامل أشبه بالنور القوي الذي يمنحه مصباح تمسكه، وتكشف به ظلمة دامسة لغرفة يتعثر فيها نظرك، ولا أظن أن أحدا من هؤلاء البشر - الذين يختلقون في كل يوم حربا إنسانية - سيبصرون ضوء البهجة.

لو استطاع أي إنسان أن يتأمل قليلا دون النظر إلى أسباب الحياة، أو محاولة امتلاكها بأية وسيلة؛ سيكتشف حتما بحدس غامض، أو بفكرة موروثة، نورا ساطعا يهديه لدرب النجاة بخلود البهجة المطلقة.

أنصحك دائما بالتأمل.. إنني أحيا حالة استغراق تام وأنا أتأمل هذا العالم الصغير، كل جزء من تفاصيله الكبيرة يظهر أمامي بإجلال. صحيح أنني لم أمتلك سائر أنواع البهجة؛ لكنني قد عرفت أين تكمن الطرق لهذا الامتلاك. وليس عدم امتلاكي هو فشلي؛ بل هو النجاح من حال بيني وبين بلوغه.. أن تكون إنسانا بصفات الكمال الناقصة التي أوجدها الله فيك، هو نقمة ستدركها بين الفاقدين لتلك الصفات، ويا لهم من كُثر!...

هناك أسباب جعلت التحرك نحو طريق السعادة أشبه بتحرك خيوط بيت العنكبوت وهي تصارع رياحا تنتزعها من مكانها، وأبغض هذه الأسباب هو طموح الإنسان.. إنه هلاك لأحلامه، فالقدر يحدد لكل فرد طريقه، عليه فقط أن يسعى للسير فيه، والطامح فوق مقدرة هذا القدر سوف يخطئ خطواته، ويسقط كل أحلامه.

عزيزي آن لي أن أترك قلمي وحيدا هذه المرة وانتظر ردودك عن كل رسائلي.. إني في شوق لرؤيتها، فهي بالطبع ستعكس صورتك التي غابت عن مخيلتي كثيرا.. و أسأل الله - العلي القدير - أن تعم الغبطة الدائمة سائر لحظاتك".

openkandl.com

(11)

الشمس تسبح في زرقة السماء وتمد السهول بقوة دفئها، الأرض تحنّى محمومة، لأنها ستشهد ولادة بشر جدد في كل يوم، سيمنح القدر أولئك، أبوة الوطن الموجع بالأثقال، سيولدون أحرارا، لكنهم سيعانون عبودية طهارته!. السماء تفتح أفقها الفسيح لتستقبل ضوء الشمس الحار.. كل المكونات الطبيعية تأخذ سخونتها.. البحر، التراب، والأشجار، الحيوانات، والجبال، والنباتات، كلها تغرف من حرارتها؛ لتروي عطشها الرطب.. كلها تستلم لقوتها البعيدة، ولا شيء سوى المجهول، هو الذي يقيد طاعتها...

كنت شاردا أفكر وحدي، كاد شرودي يتحول إلى تأمل يفوق تأملات "سيظاراثا"(٧)، ثم أتساءل مع نفسي: "كيف يمتلك البشر هذه القوة اللعينة؟ كيف يولدون بضعفهم، ثم ينحنون لسلطة بطش إطماعهم البائسة؟.. هل لديهم سذاجة عظمى تزيح مخاوفهم من الطبيعة، ومن القدرة التي تفوق الطبيعة نفسها؟!".

---

(٧) الأمير سيظاراثا (بوذا) انفق جل حياته في الزهد والتنسك وممارسة التأمل.

تسمّرت واقفا أمام النافذة الزجاجية لدقائق طويلة في انتظار الكهل.. بعد انقضاء وقت لا أعلم مدته.. فتح باب مكتب رئيس المصحة، الذي كنت داخله، لقد منحني - صديقي -الدكتور النفسي إياه، لمقابلة الكهل هناك؛ لأن قاعة الاختصاصين مشغولة بالعمل اليومي، وغرفة الكهل بها مريض آخر، لقد رغبت في مقابلته بمعزل عن الناس.. جلسنا على كرسيين فاخرين وضعا مقابلين بعضهما. كان جالساً على الكرسي بثبوت عسكري صارم، وضع رجله اليمنى على الأخرى، وأخذنا نتحدث..

كانت هذه آخر الكلمات التي أسمعها منه.. لقد حدثني في ذلك اليوم بنبرة حازمة، وبحسرة قائد حربي - يملك نصف العالم - خسر كل التاريخ الذي سطرّه عبر حروبه.. خرجت كلماته بشموخ مكسور:

– لا أحد يعلم ماذا تخبئ لنا صفحات التاريخ.. الخسارة في الحرب أو الفوز فيها، لا قيمة لكليهما.. كل شيء سيتبدد، ولن يبقى سوى، انتصار الروح، وهو ما يبحث عنه التاريخ.

سكن كل شيء في الكهل، حتى كادت أنفاسه تسكن أيضا، ثم استأنف:

– وضعت الحرب أوزارها.. الحرب انتهت، لقد تخلصنا ممن كنا نقاتلهم، لكننا لازلنا نبحث عن النصر. الكثيرون احتفلوا بانتهاء الحرب وفوزهم بدحر العدو، لكنني لم احتفل...

opeikandi.com

قلت له مقاطعا:

– لكننا انتصرنا في الحرب!

فردّ عليّ بنفس الثبات، ولم يحرك شيئا من جسده؛ سوى شفتيه:

– لقد عرفنا بعضنا البعض لفترة طويلة.. هناك الكثير مما يربطنا ببعض.. ظننا بأننا حققنا كل الآمال التي نبتغيها بسهولة فائقة، كانت الشجاعة التي تلبستنا ونحن ننساب في الحرب مصطنعة. بلوغ النصر في حروب الإنسانية أشبه بانتزاع ورم خبيث، تفشى في سائر الجسم.. وكي تقضي عليه ستبدأ أولا بمصارعة الألم وإسكاته، ويمكنك التغلب عليه في بعض الأحيان، ثم تبدأ بإزالة جزء كبير منه أو كله، بأي وسيلة ممكنة، وتظن أنك قد انتصرت على قهر مرضه.. فتتفاجأ بعد فترة أنه سيرجع إلى نفس الموضع...

العلة تكمن في الأفكار المسمومة، ولا تظن أن انتزاع ورم خبيث يبطل فاعلية تلك السموم.

فكر الكهل قليلا، وأردف:

– ذات مرة، قال لي سيدي الآمر: "لا أظن أننا اخترعنا شيئا جديدا بهذه الحرب.. نحن ببساطة نجلب الوضوح عن غياهب غرائزنا المكنونة؛ لنكشف جميع المتاهات خاصتنا، التي نجهلها، ولا نعي مساوئها".

obeikandi.com

سألته بتردد:

– وهل يمكنك أن تعرف ماذا سيحدث غدا؟

أجاب بثقة:

– سوف يحمّلون هذا الوطن البائس كل الخطايا المميتة التي ارتكبوها.. سيؤلفون عشرات الكتب بعد انتهاء كل حرب، وسيتم العثور على مئات الوثائق السيئة.. سيخترعون آلاف المذكرات، الصادقة والكاذبة.. وكلها ستخدم بطولاتهم، وتملأ أهواهم بنشوة الأطماع التي تعمي أبصارهم. سيعتبرون خلالها أن الوطن مصدر لشرور البشرية جمعاء، سيلعنونه دائما، وسيلقون عليه كل اللعنات التي ستصيبهم جرّاء الحرب.

صمت، وظننت أنه لم يجد كلمات أخرى يقولها لي، ثم اندفعت جمل أخرى منه:

– ستظل الأرض تدور برتابتها حول الشمس، ستمنحها من بعيد حرارتها ودفئها، وستمضي السنون، بمضيها العجيب سلفا.. ستتداخل الرياح فوق الأرض، وتهب العواصف عبرها، وتروى الأمطار سطوحها، وتجمّد البرودة كل شيء فيها.. لكنّ الاقتتال بين البشر سينمو بازدياد، سيزداد الكفاح الواهم بين الشعوب ودولهم.. كل النضال الذي ينشدونه من أجل بلوغ الجنة ستمحوه أطماعهم.. هم يعتقدون بأنفسهم الطهارة، لكن أجسادهم ستتعفن وهم أحياء، ذلك جزاء تفرزه غريزتهم الشريرة التي ستقود بهم إلى الهلاك.. هذه هي الإنسانية، تناضل بنفسها ضد نفسها!..

تنهدتُ وأردت الحديث، لكنه استأنف الكلام:

– لقد أيقنت أن الحرب جزء لا ينفصل البتة عن الطبيعة.. إنها الحياة نفسها، لا تحيا الإنسانية دون الحروب.

اسمع.. سأسدى إليك بنصيحة، علّها تجد مكانا في قلبك: "لا تصدق حكايا الحروب أبدا، كل ما جاء في تاريخها أساطير غير صادقة، جلّها كذبات لا حدود لها.. إن أحداثها قاسية وبذيئة، ومن يؤرخ لها يريد لها الجمال والمثالية... فقط أنصحك بعدم الالتفاف لرؤية الماضي، فإن فيه من الشر ما يجعلك تبصق على كل اللحظات التي مرت داخله".

زفر جسد الكهل بالكامل بعد هذا الكلام، وأطلق هواءً قويا من داخل رئتيه، تبعه شهيق ضعيف، واستطرد قائلا:

– لا أريد منك أن ترى مذكراتي التي اكتبها عن تلك الأيام اللعينة، ربما سأكون أنا أيضا كاذبا خلال سطورها، هذه طبيعة البشر، لا يصدق بالقول ولو مع نفسه.. كلنا نكابر أمام كل شيء، وأمام أنفسنا أيضا!.. حياتنا تخلو من نزاهة الطبيعة وحلمها؛ لذا ابعد عنك هموم التفكر في أولئك الخلق، وشؤونهم البئيسة.

بعدها توقف عن الكلام.. وأنزل يمناه عن يسراه، وأحنى رأسه وأداره بعيدا عني يمينا.. ثم نهض بقوة عن الكرسي، ورحل بعد أن ودعني بحرارة... ولم أره بعد هذا اللقاء أبدا.

(12)

في بعض الأحيان أفكر وأقول في نفسي: "إنني أضيّع الكثير من الوقت في جمع التافه من الأشياء".. ولكنني أقول في نفسي أيضا: "لا بد من وجود رجال مثلي يقومون بتجميع هذه الأعمال الضئيلة، التي ستكون فيما بعد ذات فائدة تاريخية عظيمة". أي تاريخ أعنيه أنا عن هذه الأحداث؟ وأي أحداث تلك التي نبحث عن تاريخها؟.. التاريخ كذبة البشر، هو تماما هدف الجموع لإشباع رغباتهم، وتحقيق أحلامهم من خلال ما يسردون عن ماضيهم أو ماضي أسلافهم.. لطالما تساءلت عن مضي الأيام ونسيانها، لم أجد خلال دراسة تاريخ الناس على مر السنين - الذي تمكّنت من دراسته - حجة لتصديق تشابك صراعات أولئك البشر!.. كل المواقف التي تمر بجماعة أو بأفراد - قريبا أو بعيدا - لا تأتي؛ إلا لخدمة مصالح جماعة أو أفراد آخرين يأتون لاحقًا.

كانت أسئلتي تضايقني، ومع ذلك صمّمت على التمادي في طرحها على نفسي.. لماذا لا يأخذ البشر الحياد في كتابتهم لأحداث تاريخهم؟.. الحياد وهم، الاعتقاد بوجوده، تماما كالاعتقاد بوجود المبادئ، الاثنان تستخدمان لنيل المصالح الإنسانية.. وهل للإنسانية أطماع غير الحصول على مصالحها؟.

ها قد مضت أشهر عديدة على فراقي للكهل، ورغم أنني كنت أشعر بسعادة كبيرة قربه، وقرب حكاياته؛ إلا أنني فضّلت أن أفارق جلساته،

obeikandl.com

والسبب في ذلك هو الخوف من اكتشاف ما أراد هو إظهاره في مذكراته؛ لأنني قررت اختيار عدم إكمال كتابي بدلا من معرفة الحقائق.. إنني مخلوق من طينة واحدة للبشر، أليس من قمة الحكمة أن يعترف المرء بأخطائه؟.. إنني مثلهم لن أغيِّر عادتهم، أو أكون أكثر جرأة منهم وأكتسب عدالة الحياد، أو نزاهة المبادئ، وحتى إن امتلكت تلك وهذه، فلن ينفع نمو الزهرة وسط مستنقع القاذورات.

ثمة أمانة كانت ترهقني، وتجعل قلبي مجمدا، ترفعني للتعب الرامي لبلوغ الفضيلة، كانت تسلبني التفكير، وتُقبِل على اللحظات التي أعيشها فتنهكها، وتُفضي عليها الهموم، فلا أشعر ببطء الوقت وبطول الساعات. كلما مضى الوقت ازداد حزني مع تحمّل عبء تلك الأمانة، والأكثر إيلاما هو إخلاص الكهل لصداقتي به. كان يرسل معي الرسائل إلى ابنه، لكنني احتفظ بها، ولا أبعثها.. أدوِّنها مع مذكراتي، أو ربما أدوّن مذكراتي معها، أصبحت اعتمد عليها ، وأفرغها مع ما اكتب. ولأنني وعدته بالإخلاص في إيصالها إلى ابنه، فقد قررت أن أحملها إليه.. كنت أعرف مكانه ولم أخبره، لكنني لم أذهب إليه، احتفظت بالرسائل ولم يقرأها غيري، وكأنها أُرسلت لي.

منذ الصباح، شعرت بهدوء مفرط، كنت قد أمضيت ليلة البارحة حزينة، لقد تأملت خلالها، وفكرت كثيرا، وأردت بعد انتهائها أن أنسى كل ما ربطني بذكريات تلك الحرب، ومعها أنسى صديقي الكهل.. وبدأ السلام بعد نومي مباشرة يحوطني، وما أن ظهر الفلق بخفته المعهودة،حتى شعرتُ بالفرح وهو سيمتدّ معي طوال اليوم. استلقيت على "كنبة" موضوعة في منتصف منزلنا،

بعد تناولي الإفطار، كنت احتسي قهوة بمذاق المتعة التي انتابتني اليوم، لقد لملمت الرسائل داخل حقيبتي، وكنت انظر إليها وأنا في جلستي، وعرفت بأنني سأتخلص - بتخلصي منها - من شبح الماضي الذي ظل يطاردني، ليس الماضي الذي عشته أنا، بل الماضي الذي طارد حياة الكهل، وظللت أنا أتعقبه، وبدل أن أمسكه، جثم هو على حياتي.. كنت أفكر فيه الآن وأنا بين حضرة الابن القاتم، ارتشفت ما بقي منه، كانت روحي فرحة، وكأنها طائر أسطوري أقام عشه فوق أعالي الجبال.. لقد قررت أخيرا الذهاب إلى ابنه..

خمّنت وأنا لا أزال جالسا، أنه يجب أن تكون الروح الإنسانية مطمئنة، إذ كانت الفضيلة تندمج مع الإخلاص إلى الأرواح البشرية الأخرى، ولا أعتقد أن هناك فضيلة غير الإخلاص.. فملذات النفس لن تمتلئ دون الإخلاص إلى الأنفس المحيطة.

خرجت على الفور، ولم تمر دقائق حتى كنت قرب المكان الذي يسكنه ابن الكهل، اقتربت من مدخل الساحة الكبيرة، وعندما اجتزت الباب الحديدي القديم المفتوح على مصراعيه، نظرت إلى الأمام، كانت الأرض المنبسطة في الساحة تشع بالدفء من حدة حرارة الشمس، والأعشاب المتناثرة عليها تعكس نورا سماويا. رأيت ابتسامات العابرين تعلو الفضاء المشمس، تسبح مع النسمات الخفيفة في الهواء الدافئ، وكأنها ريشات حمام تأخذها الرياح يمنةً ويسرةً لتداعبها... رأيت وما رأيت، كانت خيالات لأولئك المالكين لهذه الأرض، كلهم اصطفوا مقربين من بعضهم، وكأنهم يتناغمون سيمفونيات اللا حياة.. لهم أصوات لا يسمعها إلا من يعرفهم جيدا، متراصون بوحدة مذهلة..

لهم مع بعضهم انسجام جماعي لا يشهده غيرهم من البشر.. تقدمت في خطوات رفيعة بينهم، حاولت جاهدا ألا اصطدم بأحد منهم حين دخولي، نظرت حولي، أردت أن أرى منزل ابن الكهل في تلك الفسحة الكبيرة من الأرض، ولأنني زرته سابقا فقد عرفت مكانه..وصلت إليه، دنوت منه، كان صغيرا في حجمه، لا يأخذ من التراب إلا ما يزيد عن المتر قليلا.. ربما كان قبره هذا أقل مساحة من مساكن مجاوريه، فجثته صغيرة... في هذه الحالة السرمدية التي تسبق الحياة لا يهم حجم المسكن وهيأته. نحن نقيم أطلالا فسيحة من الأبنية أثناء حياتنا، ونخزّن خلالها كل ملذاتنا، وحين نتقل إلى العالم الآخر، لن نجد من تلك المدخرات شيئا.

كان هذا تماما المسكن الوحيد الذي يليق بهذا الشاب، لقد أنهكته الحرب، فواصل نضاله، سعيا منه لنعيم بشري يطمح له أيما طموح، لم يظفر كغيره إلا بمسكن صغير يكفي لإراحة جسده وهو مستلقٍ بين جدرانه.. هو موجود قربنا الآن، لكنني أعتقد بالبعد الفلكي الذي يفصله عن شقائنا هنا.

هناك مسافات تحجز صلة الربط بين الوقائع المأخوذة سالفا، وبين الوقائع المأمولة لاحقا، وكلا الطرفين يتصلان بالحلم الإنساني، لا وجود لاندماجهما، وهذا ما كان ينشده الكهل عبر رسائله.. ربما لم يدرِ فعلا بموت ابنه، أو ربما كان يدري لكنه أراد أن يتواصل مع الروح التي تركت جسد ابنه. بين الممكن والمحال قطع الكهل خطواته قُدما؛ ليتغلب عن ذلك العازل الأبدي: (الموت)، هذا المخلوق المكوّن بوحشية مثيرة للإعجاب، يقتلع كل

الآمال والأحلام والأهداف والأفكار، لا سبيل لمواجهته أو تحديه.. كلنا نتوقف عن تواصلنا مع الموتى، لكن ذلك الكهل لم يذعن لهذا الشبح، لقد تعايش مع الموتى، نسي الأحياء وابتعد عنهم؛ لأنهم كما وصفهم: "آلات تحركها ملذات ديناميكية تضبط في التحكم مع بدء التصنيع". وكان يقول لي دائما: "مهما ابتعدنا في هذه الحياة وامتلكنا فيها كل الأمور الفاتنة والساحرة، ومهما اغتنمنا من التسلط جاهه وهيبته، فإن الموت في نهاية الأمر سوف ينتصر".

وصلت إلى القبر، تأملته.. لا شيء يوحي بأن هذا الشاب قد مات خلال الحرب، القبر غير مميز بعلامات الشكر والثناء، نظرت حوله، كانت القبور متشابه، بائسة تملؤها الأتربة من كل جانب، حتى شواهدها مغطاة بالغبار.. هكذا حال ضحايا الحرب عندنا!.. "لا خير لهم قبل الموت أو بعده". انحنيت بكامل جسدي، ولم يسعفني الانحناء بنيل قسط طويل من الراحة جانبه، عدّلت ميلان جسدي وجلست قرب جهة الرأس للجثة المغطاة بقليل من أتربة أحلام الوطن الكبير؛ لأحاكيه.

نظرت مليّا إليه في قبره.. عبر ذلك الجدار الطيني الذي يفصلنا عن عالم الأموات رأيت ابتسامته الرقيقة تبادلني النظر، عرفت لحظتها أنه في انتظار شيء يريدني أن أخبره به.. فتحت حقيبتي وأخرجت مجموعة الرسائل الكثيرة التي كتبها إليه أبوه.. وبدأت في قرأتها الواحدة تلو الأخرى:

" عزيزي.. أرسل إليك دون غيرك؛ لأنك الوحيد الذي يملك نفس السأم، ونفس...

(خاتمة)

كانت هذه كل الأسطر التي نقلتها بتفاصيلها من رجل عاش فترة الحرب، تلك الفترة التي لم تكن كافية بالقدر الكبير؛ لتصبح قصة ناضجة.. هو لم يستطع تدوين أحداثها؛ لذا حاولت أن أكتب بدلا عنه، لكن أطماعي الأدبية أغرتني بأن أصوغ كل ما حدّثني به في شكل رواية، وربما قد فشلت.. آه... ما أصعب كتابة الرواية.. لم أشعر بالندم حيال ذلك الفشل؛ لأنني قد دونتها في هيأة مذكرات بسيطة، مذكرات حية لبطل شاهد وعايش كل الأحداث والمواقف التي افتعلتها آلام الحرب به.. أخذت كل رسائله ووضعتها مع تلك الحكايات التي سردها عليّ... أليس من شروط الرواية أن يكون هناك بطل، وهناك صراعات تتداخل بحوادث زمانية ومكانية حول شخصيته؟ أليس أيضا من شروطها أن يكون هناك شخوص ذوو صلة بالبطل وبكل التفاصيل؟... لو كان ذلك صحيحًا، فإنني اقتربت من تكوين رواية. حتى وإن فعلت، أو دونت كتاب مذكرات ناجحة؛ فإن الأسى يفطر قلبي، لأنني ما استطعت أن أشعر بالرضا عما كتبته، الكهل لم يبح إلا بالقليل عن تلك الأيام العصيبة، ومهما كان صائبا في استرجاع تلك الذكريات، ونقلها إليّ؛ فإن حياة الإنسان وذكرياتها تبدو تماما كالشجرة المثمرة، ليس كل ما يسقط منها يكون ثمارا ناضجة.

كنت صبيّا حين مرت الحرب، ولا أدري كيف جرت حياة الناس خلالها.. وكتابة هذا النوع من الحكايا يتطلب جهدًا وبحثًا كبيرين، لكنني لم أتراجع، وأتممت تفريغ الكلمات التي سمعتها.

لقد أسميت تلك الرواية، أو المذكرات - إذا صحّت التسمية - (رسائل الفردوس)؛ لأنها بالفعل رسالة أُرسلت إلى الموتى الذين نأمل لهم مكانا سويا في أعالي السماء.. لهذا السبب كانت تأخذني الراحة والبهجة حيال ذلك الفشل؛ لأن ما كتبته كان موجّها للموتى، ولا أظن أن الأحياء معنيون بقراءتها، ولن يصيبني الخجل إذا لم تعجبهم. أما الأموات فلست معهم الآن، وهم لن يوبخون كلماتي.

وسط كل الأحداث التي مررت بها، كنت أكتب دون طموح، ولا متعة، ولا هدف، لكنني فرِحٌ بفكرة تسطير تلك الأحداث، وقد ساعدتني صراحة الكهل في حرث الورقات البيضاء التي أردتها محصولا وفيرا في حقل الأدب الضامر، وبالطبع ليس هذا الطموح الذي أبحث عنه فقط.

لازلت لا أعرف سبب القلق الذي يعتريني مُذ بدأت في الكتابة.. لا شيء أفعله يخلصني منه.. وأنا اليوم أعجز عن كتابة أي شيء آخر؛ غير أني أشعر بعمق وبقوة كبيرين تجاه ما كتبت سالفا، لدرجة أنه يبدو لي أنها كُتبت من شخص آخر، وأن الفرحة التي كنت أدّعي أنها تأتي من خلاله، كانت مجرد شعور يحاول طمس ذلك القلق.

أعود إلى أوراقي. لقد حلّ الليل، والجميع في بيتي نيام، لم أفارق تلك الفسحة البيضاء التي أمام ناظري، أطيل السهرة، ولا زلت أكتب. أمام الشرفة مفتوحة الأبواب، رائحة العطر الندي لأعشاب المزرعة المقابلة تملأ الغرفة، والهواء الدافئ يتطفل بهدوء نحوها.. مع السكون المطل أمامي، أتذكر حين كنت طفلا. عندما كنت أرى وأسمع الأشياء بمعنى غير الذي ألحظه الآن، ابتسم للحظات التي أعشقها عندما كنت امتلك براءة الأنبياء - التي تتلبّسنا ونحن صغارا – ولا شيء سواها.. أتنهّد وأشكر الخالق: لأنه جعلنا نتذكر جزءا سعيدا من حياتنا منذ تكوّننا على هذه الأرض.. أصرخ دون صوت وأتمنى أني ما أزال طفلا. أغمض عينيّ لوهلة، ثم أفتحهما: فأعرف أن هذا مجرد وهم، لقد صبغت الإنسانية طابعها السيئ على أذهاننا وأخرجت البراءة منها..

لم أكن أدخل خلال هذه الأيام إلى غرفتي دون أن يصيبني الانفعال الشديد كلما أردت تذكر التعيس من حياة الكهل، فهو يمثل عندي حياة كل المحاربين وغير المحاربين في تلك الحرب.

أتوقف عند هذا الحد من التذكر، وأعطل كل الأطراف غير الحسية في جسدي، أخرجها من سبات التفكر، أرفع كل شيء فيّ عن الورقة.."يداي، قلبي، عيناي، جسدي" كل شيء أقف به معي؛ إلا الذكريات، أتركها فوق الأوراق، أتركها مع وحشة الحرب غير المنتهية، وأهرب بالخيال إلى أشياء أخرى.. مشيت نحو الشرفة، لا شيء سيفصلني الآن عن الهواء العليل والاستمتاع بنعمة الوحدة التأملية؛ سوى تعطيل العقل عن التفكر..

خرجت لاشتم كل عناصر الهواء؛ كي ابتعد عن تلك المحن التي نقاسيها من التذكر.. ظللت واقفا كثيرا، وبعد انسحاب ساعات عديدة من جنح الليل الساكن، عدت للغرفة، ونمت.. لكنني قبل أن أمضي في رحلة النوم كنت قد قررت ترك مهنة الكتابة؛ لأنني عرفت أنها تدفعني لاكتشاف عيوب البشر.

النهاية

بنغازي ٢٠١١

obeikandl.com

الكاتب في سطور

- الاسم/ معتز سعد بن حميد
- مواليد/ 1983 بنغازي. ليبيا.
- كاتب. ناقد أدبي وفني.
- درس بكلية خاركوف للثقافة والفنون تخصص الإخراج السينمائي/ بأوكرانيا.
- يعمل بمجال الصحافة (الكتابة والتحرير الصحفي)/ والإدارة الثقافية.
- مدة الخبرة/ 9 سنوات في مجال الإعلام والثقافة.
- يشغل الآن منصب رئيس قسم الفنون بمكتب الثقافة بنغازي التابع لوزارة الثقافة الليبية.
- **شغل سابقا منصب:**

1. رئيس قسم التوثيق والأرشيف بمكتب الإعلام بوزارة الثقافة الليبية مدة 12 شهر عام (2012).
2. رئيس قسم الإعلام بمكتب الثقافة بنغازي مدة 10 أشهر (2013)
3. عضو مؤسس لصحيفة العين (مدير تحرير سابق).

obeikandl.com

- كتب الكثير من المقالات النقدية في مجال الأدب والفن والسينما في العديد من الصحف والمجلات الليبية والعربية منها: (جريدة الفنون الكويتية . مجلة الفجيرة الإمارتية . صحيفة بني مكادة المغربية . مجلة المسلة الإلكترونية المصرية . صحيفة برنيق . صحيفة الكلمة . صحيفة قورينا الجديدة . صحيفة ميادين . صحيفة النهضة . صحيفة العرب . صحيفة الشروق . صحيفة فبراير. صحيفة ليبيا . مجلة المسرح والخيالة . صحيفة أخبار بنغازي . صحيفة إجدابيا نت الإلكترونية . مجلة الثقافة العربية).

- عضو اتحاد الأدباء والكتاب الليبيين.

- تحصل على جائزة التنويه في مسابقة الشارقة للإبداع العربي ٢٠١٦ .٢٠١٧. في مجال الكتابة المسرحية بـ (مسرحية المُرّان)

- ترجمت له بعض القصص القصيرة للإنجليزية والإسبانية وبعضها نشر في مواقع إلكترونية ثقافية تُعنى بالأدب العربي.

openkanali.com

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017

obeikandl.com

obeikandl.com